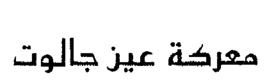
معركة عين جالوت



دار الشرق العربي
بيروت - شارع سورية - بناية درويش


معركة عين جالوت

اهداءات ١٩٩٨
مؤسسة الاهرام للنشر والتوزيع
القاهرة

معارك حربية فاصلة

عربية وإسلامية

معركة
عين جالوت

٦٥٨هـ - ١٢٦٠م

محمد الانطاكي

دار الشرق العربي

بيروت - شارع سورية - بناية درويش

سلسلة في عشر حلقات تعرض صوراً تحليلية مجيدة من تاريخنا الحافل بالبطولات من القرن الهجري الرابع الى العصر الحديث.

١ - معركة الحدث الحمراء ٢ - معركة الزلاقة
٣ - معركة حطين ٤ - معركة الارك
٥ - معركة المنصورة ٦ - معركة عين جالوت
٧ - معركة فتح القسطنطينية ٨ - معركة وادي المخازن
٩ - معركة ميسلون ١٠ - معركة الجبل الأخضر

شارك في تحرير هذه السلسلة
الدكتور صالح الأشتر
والدكتور عمر الدقاق
والأستاذ محمد الانطاكي

وأشرف على إصدارها
الدكتور صالح الأشتر

سلسلة تعلمنا أن النصر لا يحققه الا القادرون على الموت في سبيله

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

في الفترةِ التي انقضَّ فيها المغولُ (التتار) الفاتحون على البلاد العربيةِ كان ملوكُ وأمراء آل أيوب هم الذين يحكمونَ هذهِ البلادَ عدا قسماً من الجزيرةِ (جزيرة ابن عمر) إذ كان يحكمها واحد من ذريةِ نورِ الدين زنكي.

بدأ الغزُو المغوليُّ عام ١٢١٩ الميلادي فهاجموا أولاً قلاعَ الاسماعيليةِ وأكبرُها قلعة (الموت) أي (عش النسر) وهي المقرُّ الرئيسي لحسنِ الصبّاحِ سيد هذه الطائفةِ حينذاك وكانت القلعةُ قريبةً من بحيرة (قزْوين) وتسمى بحرَ الخزر وكان أتباعُه يطيعونَ أوامره طاعةً عمياء وامتدَّ سلطانهمْ فيما بين خراسانَ والعراقِ ثم توسعوا حتى احتلوا مناطقَ في سوريةَ ولبنانَ، وتوطنوا بعضَ المدنِ منها القدموسُ ومصيافُ وأماكنُ أخرى غيرُ بعيدةٍ من دمشقَ وحلبَ.

وكان التتارُ قد حافظوا على طبائعِهِمْ البدويةِ، وعاداتهم القبليةِ وحبهم للنهبِ والحرب.

وكان جنكيزخانُ سيدُ بلاد التتار والصين الشمالية قد توجه إلى النواحي الغربيةمن آسيا مهدداً بلادَ فارسَ وما جاورها وكانت من املاكِ السلطانِ خوارزْمَ شاه محمد، فاجتاحت جيوشُ المغولِ ما يملكه خوارزم شاه ولمّا لجأ إلى جزيرةٍ في بحر قزوين وماتَ هناك خلفه ابنه جلالُ الدين منكبرتي، وكان جلالُ الدين شجاعاً مقداماً غير أنهُ كانَ على رأسِ قومٍ لا يرغبونَ في الدفاعِ عن أنفسهِمْ وبلادِهِمْ فلم تنفعْ شجاعةُ جلالُ الدين ولا بسالتُهُ في ردِّ المغولِ. وقُتِلَ غيلةً بأيدي أفرادٍ من قومِه، وإن كان قد أخَّر تقدمَ المغولِ إلى بغدادَ فترةً من الزمن الى أن اغتيلَ في ديار بكر كما قدَّمْنا.

وتقدَّمَ المغولُ بعد موتِ جنكيزخانَ وخليفته أقطاي نحو بغداد بقيادة (هولاكو) نائباً عن أخيه منفوخان بعد أن قضى قضاءً تاماً على حصونِ الاسماعيليةِ. فحاصرَ بغدادَ، فطلب الخليفة المفاوضة فرفضَ المغولُ طلبَ الخليفةِ وفي شهر صفر عام ٦٥٦هـ الموافق ١٢٥٨م دخلَ التتارُ بغداد عنوةً فانتهبوها في سبعةِ أيامٍ وأحرقوا بعضَ المخطوطاتِ الثمينةِ التي وجدوها في المكتباتِ والمدارسِ وألقوا بعضَها الآخرَ في نهر دجلةَ.

وخُنِقَ المستعصمُ آخر خلفاءِ العباسيين بأمر هولاكو وجُرَّت جثته

تحت أسوار بغداد وكانوا أن فعلوا نفس الأفعال في بخارى وسمرقند ومَرْد ونيسابور.

ورغب المغولُ في الاستيلاء على الشامِ ومصر بعد أن استولوا على العراقِ فوقفَ لهم المماليكُ ملوكاً وأمراء بالمرصاد.

وفي نفسِ الوقتِ الذي كان العربُ يصدونَ حملاتِ المغولِ الضاريةَ، كانوا يحاربونَ الجيوشَ الصليبيةَ التي كانت تحتلُّ بقاعاً واسعةً من سوريةَ ولبنانَ وفلسطينَ والأردنِّ.

فقَبْلَ سنوات من تدفقِ المغولِ إلى البلادِ العربيةِ كانتْ البلادُ في حرب ضروس ضدَّ الزحوفِ الصليبيةِ وظلتْ كذلكَ حتى بعد أن صَدَّ العربُ المغولَ ثم التفتَ العربُ إلى الجيوشِ الصليبيةِ بعد رحيلِ المغولِ، وأخذ الفرنجُ يخسرون ما بقي تحت أيديهم بالتتابع. وكانت قد أحدِثتْ في مصر خلافةٌ عباسية جديدة بعد زوال الخلافةِ من بغدادَ بمقتلِ المستعصمِ آخر خلفائها على يد المغولِ. وكانتْ الخلافةُ العباسيةُ في مصر لا سلطان لها ولا عمل سوى المصادقةِ على توليةِ السلاطينِ، وظلتْ كذلكَ حتى عام ١٥١٧ الميلادي حينَ أبادَ سلاطينُ التركِ المالكونَ للقسطنطينيةِ وجميع آسيا الصغرى، أبادوا المماليكَ وبسطوا سيادَتَهمْ على جميع الأقطارِ العربيةِ.

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

هذه البلادُ العربيةُ ــبلادناــ قد ابتليتْ بالمحتلين من شرقٍ أو غربٍ حتى حقَّ لنا أن نقولَ: إن تربةَ بلادِنا قد جُبِلتْ بدماءِ الأجدادِ، ومعها دماءُ الغزاةِ والمغيرينَ على مدى الأحقابِ.

ومن أكبر الحوادث في تاريخنا قدومُ طوائفِ المغولِ والتترِ واستيلاؤهمْ على معظمِ بلادنا في آسيا وأولُ من فتح هذا الباب هو جنكيزخان المغولي التتري.

والتترُ شعبٌ كبيرٌ من الأمةِ التركيةِ التي منها العثمانيونَ والتركمانُ كذلك فالتتارُ والمغولُ فخذانِ من الأمةِ التركيةِ، كقبيلتي مضر وتغلب في الأمةِ العربية مثلاً.

عمل جنكيزخانُ على لمِّ شعثِ قومِهِ فنجحَ في ذلك نجاحاً عظيماً وانضمتْ إليه قبائلُ التتارِ والمغولِ وأكثرُ القبائلِ التركيةِ فصارتْ له مملكةٌ واسعةٌ مكونةٌ من أممٍ لا يعلمُ عددَها إلاّ اللهُ، وكانتْ عاصمةُ ملكِهِ مدينةَ قراقردم. في أواسطِ آسيا.

وقد وضع جنكيزخان لقومه قوانينَ يسيرونَ عليها في معاملاتهم وأحكامهم.

خروجُ المغولِ للإستيلاءِ على البلادِ العربيةِ:

كان الخليفةُ العباسيُّ في بغدادَ هو الناصر لدينِ

اللهِ، كما كان السلطانُ خُوارزْم محمد سلطان خراسان وما جاورها في حرب ٍضد خليفةِ بغدادَ الناصرِ لدين الله.

وفي عام ١٢١٩ ميلادية خرج جنكيزخانُ قاصداً بلادَ خوارِزْم شاه في خراسان ثم آذربيجان واستولى على تلك الديار ثم عاد إلى عاصمته قراقردم الواقعة في صحراء شامر في آسيا.

وتابع جنكيزخان ملك التتار فتوحاتِهِ، فاستولى على سمرقندَ، وأرسلَ جنودَهُ في طلب خوارِزْم شاو بلا إلى نيسابورَ وظلَّ التتار في اثرِهِ، ثم وصلَ مازندرانَ متجهاً نحوَ غربِ البلادِ حتى انتهى إلى جزيرةٍ في بحر قزوين، مات فيها. وأخذ ابنُه جلالُ الدين على عاتقه مواصلةَ الحربِ ضدَّ المغولِ والتتارِ.

مقتلُ جلالِ الدين بن خوارزمشاه محمد

سارَ جلالُ الدينِ بعد موتِ أبيه السلطانِ محمد إلى خوارِزْم وطارِدَهُ التتارُ فلحقَ بِغَزْنَةَ، ونشبتْ معركةٌ بينهُ وبينَ التتارِ. ثم لحقَ به جنكيز خانُ فاتجهَ جلالُ الدينِ وقد أصبحَ سلطاناً خلفاً لأبيه اتجهَ نحو الحصنِ، فطاردهُ جنكيزخانُ ملكُ التتارِ حتى التقى الجيشانِ على نهر السندِ، وانتصرَ السلطانُ جلالُ الدينِ في أولِ المعركةِ ثم تخاذلَ. وولّى منهزماً، وأسِرَ ابنهُ وعمره سبعُ سنينَ، وقُتِلَ الطفلُ بين يدي جنكيز خانَ الملكِ الطاغيةِ، ولم يقفْ الأمرُ عند هذا الحدِّ، فحينما عادَ السلطانُ جلالُ الدينِ يبحثُ عن عيالِهِ قربَ نهرِ السندِ، وجدَ والدتَهُ وزوجَهُ أمَّ ابنهِ المقتولِ وزوجةً أخرى له. فصرخْنَ جميعاً يطلبْنَ الموتَ إن كانَ لا يستطيعُ تخليصَهُنَّ من

الأسرِ وألقينَ بأنفسهِنَّ في النهرِ فغرقْنَ جميعاً وقد قالَ أحدُ الشعراءِ عندما سمعَ بما حدثَ:

مَنْ مَلَكَ الدنيا ودانتْ لَهُ
فالجهدُ كلُّ الجهدِ أن يُحْسَدا

بقدرِ ما ترفَعُ أصحابَها
تَحُطُّهمْ فالرأيُ قربُ المدى

و يلي على المغرىٰ بعليائِها
سيضحكُ اليومَ و يبكي غدا

تُعطيهِ كالمشفقِ لكنّها
تبطشُ في الأخذ بطشَ العدا

مبتدأ حلوٌ لمن ذاقَهُ
ولكِن لننظرْ خبَرَ المبتدا

غدّارةٌ خوانةٌ أهلَها
ما زهِدَ الزُهادُ فيها سُدى

ثم اقتحمَ السلطانُ جلالُ الدينِ وجيشُهُ نهرَ السندِ فاستطاعَ أن يجتازَهُ مع أربعةِ آلافِ رجلٍ، وسارَحتى وصلَ إلى الأهورَ في الهندِ (واليومَ هي في الجمهوريةِ الباكستانية) ثم دخلَ فارسَ ووصلَ إلى كرمانَ في سنة /٦٤١/ هـ ولقيَ هو وعسكرُهُ في البراري الواقعةِ بين الهندِ وكرمانَ شدائدَ عظيمةً.

ثم سارَ جلالُ الدينِ إلى خوزستانَ ثم آذر بيجانَ واستولى عليها وعلى أكثرِ بلادِ إيرانَ.

ونقلَ رفاتَ أبيهِ من الجزيرةِ الصغيرةِ التي توفي فيها إلى قلعةِ أردهانَ ودفنه فيها. ولكن التتارَ لما استولوا على أردهانَ نبشوهُ وأحرقوهُ كما فعلوا في كل ملكٍ عرفوا قبرَهُ، ومنهم محمودُ ابن سبكتكين بمدينةِ غزنةَ.

وسارَ جلالُ الدينِ إلى مدينةِ آمدَ والتتارُ

يطاردونَهُ حتى أحاطوا بعسكرِهِ، فدخلَ بعضُ رجالِهِ وأخذَ بيدِهِ وأخرجَهُ بعيداً عن جنودِهِ وهو يريدُ ابعادَهُ عن الخطرِ، ولحقَ بهِ التتارُ، فلجأ جلالُ الدين إلى جبلٍ قريبٍ، فلقيهُ بعضُ السكانِ فسلبوهُ ما معه، وما عليهِ من الثيابِ وأرادوا قَتلَهُ، فقال جلالُ الدينِ لأحدهمْ إني أنا السلطانُ فاستبقني أجعلْكَ ملكاً، فاستبقاهُ فحضرَ رجلٌ، وسألَ عنه فقالتْ امرأةٌ في المنزل لقد أَمَّنهُ زوجي، فقالَ لها إنه السلطانُ وقد قَتَلَ لي أخاً في مدينةِ خلاطَ هو خيرٌ منهُ ثم أقبلَ عليهِ وقتلَهُ.

وسارَ التتارُ بعدَ مقتلِ السلطانِ جلالِ الدينِ فاحتلوا فارسَ كلَّها دونَ أن يجدوا مقاومةً تذكرُ.

ومما لا شكَّ فيه أن جلالَ الدينِ أخَّرَ اجتياحَ التتارِ للعراقِ مدةً غيرَ يسيرةٍ ولكنهُ وإن كانَ شجاعاً غير

أنَّهُ لم يكن يصلُحُ لهذهِ المهمةِ في تلكَ الفترةِ بالذاتِ.

وتابعَ أقطايُ بنُ جنكيزخانَ الذي أصبحَ سلطانَ المغولِ الأكبرَ وفقَ إرادةِ أبيهِ جنكيزخانَ وموافقةِ أكابرِ قومِهِ، تابعَ الحربَ بعدَ مقتلِ جلالِ الدينِ.

ولم ينجحْ أقطايُ في حروبِهِ ضدَّ الخليفةِ المستنصرِ باللهِ خلالَ عام ١٢٣٥ م وما بعده وحينَ انتهى الحكمُ إلى مَنْغوخانَ عهدَ إلى أخويهِ كوبلايَ وهولاكو في توسيعِ حدودِ أمبرطوريةِ التتارِ (المغول). فاتجهَ كوبلايُ نحو الصينِ شرقاً فتمَّ له إخضاعُها ومنغوخان هو(منكوقاآن) كما يكتب اسمه في بعض المراجع.

أما هولاكوخان فقد كُلِّفَ أن يسيرَ غرباً فيفتحَ غربَ إيرانَ والشامَ ومصرَ وبلادَ الروم (شمال

الأناضول حالياً) والأرمنِ و يبقى منغوخان الأخُ الأكبرُ في الوسطِ بين أخويه كوبلايَ وهولاكو.

هولاكو في طريقِهِ إلى البلادِ العربيةِ

وسارتْ جيوشُ هولاكو تحتلُّ مدنَ إيرانَ وقد أوصاهُ أخوهُ منغوخانُ قائلاً «إنكَ الآنَ على رأسِ جيشٍ كبيرٍ، وقواتٍ لا حصْرَ لها فاعلُ باسمكَ إلى الشمسِ الساطعةِ. وحافظْ على تقاليدِ جدنا العظيمِ جنكيزخانَ وقوانينِهِ وخُصَّ كلَّ من يطيعُ أوامركَ و يتجنبُ نواهيكَ في الرقعةِ الممتدةِ من نهر جيحونَ حتى أقاصي بلادِ مصرَ بلطفكَ و بأنواعِ عطفِكَ وإنعامكَ أمّا من يعصيكَ فأغرقهُ في الذلةِ والمهانةِ مع نسائهِ وأبنائهِ وكل ما يتعلقُ به. وابدأ بإقليم قهستان في خراسان، فخربْ القلاعَ وَالحصونَ».

«فإذا فرغتَ من هذهِ المهمةِ فتوجهْ إلى العراقِ،

وإذا بادرَ خليفةُ بغدادَ بتقديمِ فروضِ الطاعةِ فلا تتعرضْ له مطلقاً، أمّا إذا تكبَّرَ وعصى فألحقهُ بالآخرينَ من الهالكينَ»

وفي عام ٦٥١هـ تحركَ هولاكو بجيوشِهِ الجرارةِ.

وفي الطريقِ إلى العراقِ بادرَ الأميرُ مسعودُ صاحبُ تركستانَ وماوراءَ النهرِ وأمراءُ الأطرافِ بتقديمِ فروضِ الطاعةِ.

وفي عام ٦٥٣ هـ نزلَ هولاكو في سمرقندَ. وهناكَ أقامَ لهُ الأميرُ مسعودُ خيمةً منسوجةً بالذهبِ، حيثُ أمضى ما يقربُ من أربعينَ يوماً.

وسارَ هولاكو حتى وصلَ إلى مدينةِ / كِشْ/ وتقعُ في الجنوبِ الغربيّ من سمرقندَ فأقبلَ الأميرُ /أرغونُ/ مع كافّةِ وجهاءِ تلكَ النواحي وقدموا خضوعَهم وهداياهمْ.

ولما شاعَ خبرُ وصولِ راياتِ هولاكو إلى السلاطينِ والأمراءِ في أطرافِ إيرانَ أسرعوا إلى التوجهِ إلى هولاكو لتقديمِ فروضِ الطاعةِ.

وعبرَ هولاكو بجيوشهِ نهرَ جيحونَ في ذي الحجة عام /٦٥٣هـ/

وكانَ هولاكو قد اصطحبَ زوجتيهِ:
دوقوزخاتون وأولجاي خاتون، وقد أحاطَ به النبلاءُ والأمراءُ وجميعُ أركانِ الدولةِ وفلولُ الأطراف وحكامُها.

سيرُ القائدِ كيتو بوقا في طليعةِ جيشِ هولاكو خان

وكانَ كيتو بوقا أحد قوادِ جيشِ هولاكو خان قد سارَ بجيشِهِ متقدماً ومستطلعاً فحاصرَ قلعة

/مِهْرين/ ثم دخلَ مدينةَ /شاه/ وقتلَ عدداً كبيراً من السكانِ.

وقصدَ المغولُ أسوارَ المنصوريةِ وآله بشين، وأقاموا فيها مذبحةً دامتْ ثمانيةَ عشرَ يوماً وهوجِمَ معسكرُ المغولِ وقُتِلَ بعضُ الجنودِ فأعاد كيتو بوقا الهجومَ على ولايةِ قهستان وأباحَ فيها القتلَ والغاراتِ.

ووصلتْ جيوشُ المغولِ إلى قلاعِ: /ألموت/ و /ميمون دز / و /لنبه سر/ وهي قلاعٌ حصينةٌ لطائفةِ الإسماعيليةِ وكان يحكمها الأميرُ علاءُ الدينِ، فدافعَ الأخيرُ عن هذه القلاعِ دفاعاً مجيداً.

وفي ليلةِ الأربعاءِ آخرِ ذي العقدةِ سنة ٦٥٣ هـ أقدم حسنُ المازندراني حاجبُ الأميرِ علاءِ الدينِ على قتلِه غيلةً بالاتفاقِ مع ابنهِ خورشاه، وصارَ (خورشاه) حاكماً للإسماعيليةِ مكان أبيه.

وبعد أيامٍ كتبَ خورشاه رسالةً إلى حسنِ المازندراني وأرسلَهُ مع أحدِ اتباعِهِ فلما تناولَ حسنُ الرسالةَ وفضها ليقرأها غدرَ به حامل الرسالةِ وأعلنَ خورشاه أنه قَتَلَ (حسناً) المازندراني لأنه هو الذي قتلَ والدَهُ.

وتقدمَ ناصرُ الدينِ المحتشمُ من قلعةِ /سرتخت/ بتقديمِ فروضِ الطاعةِ إلى هولاكو خان.

وراحَ هولاكو خان يَتنقلُ في ديارِ قهستان يُخضعُ القلاعَ والمدنَ لحكمِهِ، ويقتلُ السكانَ جميعاً ما عدا أربابَ الحرفِ، واستولى كذلك على /زاده/ وهي بلدةٌ صغيرةٌ في خراسانَ ثم استولى على /خواف/ وهي مدينةٌ بالقربِ من /نسا/ كبيرةٌ آهلةٌ ذاتُ قرى وبساتينَ ومياهٍ كثيرةٍ ثم توجهَ الجميعُ إلى مدينةِ (طوس).

هولاكو خان يحتلُ طوسَ ويقضي على دولةِ الإسماعيليةِ ويخضعُ حصونَهم لسلطانِهِ

دخَلَ هولاكو خانُ مدينةَ طوسَ ثم احتلَّ مدينةَ خيوشان (قوجان) كما كان يسميها المغولُ فأمرَ بتعميرِها من جديدٍ، وأرسلَ رسالةً إلى (خورشاه) سلطانِ الاسماعيليةِ، ثم أتبعَها برسالةٍ ثانيةٍ يطلبُ منهُ الطاعةَ وتسليمَ القلاعِ، فأكرمَ خورشاه رسلَ هولاكو وأظهر الخضوعَ والطاعةَ.

سارَ هولاكو نحو قلاعِ السلطانِ خورشاه ماراً بمازندران وهي مدينةٌ عامرةٌ في تلكَ الجهاتِ وأرسلَ هولاكو إلى خورشاه يطلبُ منه أن يخرب قلاعَهُ فخضعَ خورشاه لهولاكو، وأرسلَ ابنَهُ مع عددٍ من الأعيانِ دليلاً على خضوعِهِ وطاعتِهِ.

وفي شهرِ ذي العقدةِ عام /٦٥٤ هـ/ استسلمَ ركنُ الدينِ خورشاه لهولاكو، فأكرمهُ الأخيرُ وكانَ عددُ القلاعِ التي كان يحكمها خورشاه يناهزُ المئةَ قلعةٍ واستولى هولاكو على أموالِ وخزائنِ خورشاه ووزعَها على قواد جيشِهِ. وكانتْ قلعةُ (ألموت) عاصمةَ الاسماعيلية، قد استسلمَ أهلُها أخيراً.

وظلَّ هولاكو يكرمُ خورشاه ويحثه على دعوةِ أصحابِهِ للاستسلام حتى إذا تمَّ استسلامُ الإسماعيليةِ أرسلَ هولاكو خورشاه إلى أخيهِ منغوخان فأمرَ الأخيرُ بقتله وقتلِ أقاربهِ وأفرادِ أسرتِهِ من النساءِ والرجالِ حتى الأطفالِ الذين في المهدِ فيما بين أبهرَ وقزوينَ فلم يبقَ منهم أثرٌ وقد دامَ ملكُ الاسماعيليةِ ١٧٧ عاماً. وكان أشهرَ ملوكِهم مؤسس الدولةِ حسنُ بنُ عليٍّ الصَبّاح.

هولاكو يتوجه نحو همذان (قهستان)

سارَ هولاكو من قزوين متجهاً إلى همذان، ولا بدَّ من الإشارةِ إلى أن الصليبين في نفسِ الوقتِ كانوا لا يزالونَ يسيطرونَ على سوريةَ و يتحكمونَ في سواحلها.

وكانَ الخليفةُ المستعصمُ باللهِ خليفةُ بغدادَ ضعيفاً وعاجزاً فانتشرَ الفسادُ، واختلَّ الأمنُ، كما أن وزيرهُ مؤيدَ الدينِ بن العلقمي لم يكنْ مخلصاً تمامَ الإخلاصِ. وربما كانَ فيه ميلٌ إلى التنكرِ للخليفةِ العباسيِّ.

وسارَ هولاكو نحو (الدينَوَر) ثمَّ عادَ إلى همذانَ عام ٦٥٥ وأرسلَ من هناك كتاباً إلى الخليفةِ يقولُ فيه:

«لقد أرسلنا إليكَ رسلَنا وقتَ فتحِ قلاعِ

الاسماعيليةِ، وطلبنا مدداً من الجندِ، ولكنكَ أظهرتَ الطاعةَ ولم ترسلِ الجندَ، وكانتْ آية الطاعةِ والإتحادِ أن تمدنا بالجيشِ عندَ مسيرنا إلى تلكَ القلاعِ، فلم ترسلْ إلينا الجندَ والتمستَ العذرَ، ومهما تكنْ أسرتُكَ عريقةً، وبيتُكَ ذا مجدٍ تليدٍ، فإن لمعانَ القمرِ قد يبلغُ درجةً يخفىٰ معها نورُ الشمسِ الساطعةِ، ولا بدَّ أنهُ قد بلغَ سمعَكَ على لسانِ الخاصِ والعامِ، ما حلَّ بالعالمِ والعالمينَ على يد الجيشِ المغوليِّ، منذُ عهدِ جنكيز خانَ إلى اليوم، والذلُّ الذي حاقَ بأسرِ الخوارزميةِ والسلجوقيةِ وملوكِ الديالمة والأسابكةِ وغيرِهم ممن كانوا ذوي عظمةٍ وشوكةٍ وذلكَ بحولِ اللهِ القديمِ الدائمِ، ولم يكن بابُ بغدادَ مغلقاً في وجه أيةِ طائفةٍ من تلكَ الطوائفِ؛ واتخذوا منها قاعدةَ ملكٍ لهم فكيفَ يغلقُ

في وجهنا؟ رغمَ ما لَنا من قدرةٍ وسلطانٍ! ولقد نصحناكَ من قبلُ، والآن نقولُ لك: احذرِ الحقدَ والخصامَ. ولا تلطخْ الشمس بالوحل فتتعبَ.

«ومع هذا فقد مضى ما مضى! فإذا أطاعَ الخليفةُ فليهدم الحصونَ و يردم الخنادقَ و يسلمَ البلاد لابنه ويحضر لمقابلتنا، وإذا لم يردِ الحضورَ فليرسل كلاً من الوزير، وسليمان شاه والدواتدار ليبلغوه رسالتنا دون زيادةٍ أو نقصٍ، فإذا استجابَ لأمرنا فلن يكونَ من واجبنا أن نكنَّ الحقدَ، وسنبقي له على جيشِهِ ودولتِهِ ورعيتِهِ، أما إذا لم يصغِ إلى النصحِ، وآثرَ الخلافَ والجدالَ فليعبىء الجندَ، وليعيّنْ ساحةَ القتالِ، فإننا متأهبونَ لمحاربتِهِ، وواقفونَ على استعداد، وحينما أقودُ الجيشَ إلى بغدادَ، مندفعاً بسورةِ الغضبِ، فإنكَ لو كنت مختفياً في السماءِ أو

في الأرضِ فسوفَ أنزلكَ من الفلكِ الدوارِ، وسألقيكَ من عليائكَ إلى أسفلَ، ولن أدعَ حيّاً في مملكتكَ. وسأجعلَ مدينتكَ وإقليمكَ وأراضيكَ طِعمةً للنارِ، فإذا أردتَ أن تحفظَ رأسكَ، وأسرتكَ فاستمعْ لنصحي بمسمعِ العقلِ والذكاءِ، وإلاّ فسوفَ أرى كيفَ تكونُ مشيئةُ اللهِ».

وبعد ما بلغَ الرسلُ بغدادَ، وبلّغوا الرسالةَ، أوفدَ الخليفةُ شرفَ الدينِ بنِ الجوزي، وكانَ رجلاً فاضلاً وعالماً جليلاً ومعه بدرُ الدينِ محمودُ، وزنكي النَخواني بصحبةِ الرسلِ وأجابَ قائلاً «أيها الشابُّ الحدثُ، المتمني قصرَ العمرِ، ومنْ ظنَّ نفسِهِ محيطاً ومتغلباً على جيمعِ العالمِ، مغتراً بيومينِ من الإقبالِ متوهماً أن أمرهُ قضاءٌ مبرمٌ وأمْرٌ محكمٌ، لماذا تطلبُ مني شيئاً لنْ تجدَهُ عندي؟ كيفَ يمكنُ أن تتحكمَ

في النجم وتقيدهُ ألا ليعلمِ الأميرُ أنه منَ الشرقِ إلى الغربِ، ومن الملوكِ إلى الشحاذينَ ومن الشيوخِ إلى الشبابِ مِمَّنْ يؤمنون باللهِ و يعلمون بالدينِ، كلُّهم عبيدُ هذا البلاطِ وجنودٌ لي. وإذا كنتَ مثلي تزرعُ بذورَ المحبةِ فما شأنُكَ بخنادقِ رعيتي وحصونِهِمْ، فاسلُكْ طريقَ الودِّ، وعدْ إلى خراسانَ، وإن كنتَ تريدُ الحربَ والقتالَ فلا تتوانَ لحظة ولا تعتذرْ، إنَّ لي ألوفاً من الفرسانِ والرجالةِ. وهم متأهبونَ للقتالِ، وإنهم ليثيرونَ الغبارَ من ماءِ البحرِ وقتَ الحربِ والطعانِ.

وحينَ خرجَ رسلُ هولاكو خان من قصرِ الخليفةِ وابتعدوا عنهُ اعترضَ سبيلَهم العامةُ من أبناءِ الشعب فأطلقوا ألسنتهم بسبِّ هؤلاءِ الرسلِ. وأخذوا يمزقونَ ثيابَهُمْ، و يبصقونَ في وجوهِهِمْ.

وحينما وصلَ الرسلُ إلى هولاكو خانِ عرضوا عليهِ كلَّ ما شاهدوهُ فغضبَ هولاكو، ثم دخلَ رسلُ الخليفةِ ابنُ الجوزيّ وبدرُ الدين محمود، وزنكي وبلّغوا رسالةَ الخليفةِ فازدادَ هولاكو غضباً من نصّ الرسالةِ، وحمّلَهم رسالةً جديدةً وأمرهمْ بالرحيلِ، وجاءَ في الرسالةِ الثانيةِ ما يلي:

«إنَّ اللهَ الأزليَّ رفعَ جنكيز خانَ، ومنحنا وجهَ الأرض كلِّهِ من الشرقِ إلى الغربِ، فكلُّ من سارَ معنا وأطاعَنا واستقامَ قلبهُ ولسانهُ تبقى لهُ أموالُهُ ونساؤُهُ وأبناؤُهُ.

لقد فتنكَ حبُّ الجاهِ والمالِ والعجبِ والغرورِ بالدولةِ الفانيةِ، بحيثُ إنه لم يعدْ يؤثّرُ فيكَ نصحُ الناصحين بالخيرِ، وإنَّ في أذنيكَ وقراً، فلا تسمعُ نصحَ المشفقينَ ولقد انحرفتَ عن طريقِ أبائكَ

وأجدادِكَ، وإذنْ فعليكَ أن تكونَ مستعداً للحربِ والقتالِ، فإني متوجهٌ إلى بغدادَ بجيشٍ كالنملِ والجرادِ، ولو جرى سيرُ الفلكِ على شاكلةٍ أخرى، فتلكَ مشيئةُ اللهِ العظيمِ»

وصلتْ الرسالةُ إلى الخليفةِ فاستشارَ وزيرهُ ابنَ العلقميِّ فأشارَ عليهِ بإرسالِ هديةٍ عظيمةٍ من خيلٍ وثيابٍ وجواهرَ إلى هولاكو خان استرضاءً لهُ، وأشارَ آخرونَ على الخليفةِ بالإستعدادِ للحربِ.

واجتمعَ الوزيرُ ببعضِ رجالِ الدولةِ وقالَ سليمانُ شاه بن برجم: إذا لم يقدمْ الخليفةُ على دفعِ هذا الخصمَ القويَّ فسيتغلبُ جيشُ المغولِ على بغدادَ وهؤلاءِ لا يرحمونَ أيَّ مخلوقٍ، قوياً كان أم ضعيفاً»

وسرتْ إشاعةٌ في بغدادَ مفادُها أن الوزيرَ ابنَ

العلقميّ متفقٌ مع هولاكو خان وإنه يريدُ نصرتَهُ وخذلانَ الخليفةِ.

ثم أرسلَ الخليفةُ المستعصمُ العباسي إلى هولاكو هديةً مع رسالةٍ يذكرهُ فيها بأنَّ الجيوشَ العباسيةَ المظفرةَ كانتْ قد أخضعتْ كلَّ الذين تمردوا عليها أمثالَ يعقوبِ بنِ الليثِ الصغارِ، وأخيهِ عمرو، والبساسيري والسلطانِ محمد السلجوقي، ومحمد خوارزمشاه الذي لاقى كذلك من جنكيز خان جد هولاكو، ومات في جزيرة آبكسونَ وحذرهُ من التفكيرِ في محاربةِ البيتِ العباسي.

ولما وصلتْ الرسالةُ إلى هولاكو استشاطَ غضباً وأعادَ الرسلَ قائلاً لهم: ليذهبْ خليفةُ بغدادَ وليصنعْ من الحديدِ المدنَ والأسوارَ وليرفعِ الأبراجَ من الفولاذِ وليجمعْ جيشاً من المَرَدَةِ والشياطين

فلسوفَ ألتقي به وبجيشِهِ وسأنزله ولو كان في السماءِ وسأدفعُ به قهراً إلى أفواهِ السباعِ.

وأخذ هولاكو يستميل ولاةَ العباسيينَ في الأطرافِ وأمرَ أحدَ قوادهِ /كيتو بوقا/ بالإستعدادِ للزحفِ إلى بغدادَ كما أمرَ قوادَهُ الآخرينَ من أبناءِ إخوتهِ وغيرهمْ بالإستعدادِ للزحفِ إلى بغدادَ.

وفي شهرِ محرم من عام ٦٥٥هـ الموافق لعام ١٢٥٧ ميلادية سارَ هولاكو بالجيوشِ عن طريقِ كرمنشاه، وعندما بلغَ (أسد آباد) في خراسانَ أرسلَ هولاكو رسولاً لدعوةِ الخليفة مرةً أخرى للحضورِ والتسليمِ غيرَ أنَّ الخليفةَ أرسلَ إليهِ ابنَ الجوزي يحذرهُ و ينذرهُ و يطلبُ منهُ أن يتراجعَ عائداً مقابلَ أن يعطيَ الخليفةُ هولاكو ما يطلبهُ من مالٍ ومتاعٍ.

وقبضَ هولاكو على بعضِ قوادِ طلائعِ جيشِ

الخليفةِ ثم أعادهُمْ مشمولينَ بالعطفِ والرعايةِ، وانضمَّ بعضُ قادةِ العباسيين مثل (قراسَنْقَر) إلى المغولِ.

وعبرت فرقٌ من الجيشِ المغولي نهرَ دجلةَ في ٩ محرم عام ٦٥٦هـ ١٢٥٨م من ناحيةٍ غيرِ بعيدةٍ عن بغدادَ، واشتبكتْ مع طلائعِ جيشِ الخليفةِ فانهزمَ الجيشُ العباسيُّ شرَّ هزيمةٍ.

وفي منتصفِ محرم ٦٥٦هـ استطاعَ الجيشُ المغوليُّ أن يستوليَ على الجانبِ الغربيِّ من بغدادَ، ونزلوا على شاطىء نهرِ دجلةَ، وواصلَ هولاكو سيرَهُ نحوَ بغدادَ، ونزلَ في الجهةِ الشرقيةِ منها في ١١ محرم ٦٥٦هـ ثم تدفقَ الجيشُ المغوليُّ كالجرادِ من كل جهةٍ وناحيةٍ وحاصروا أسوارَ بغدادَ.

وأحاطَ التتارُ ببغدادَ وعلى رأسِ كل فرقةٍ قائدٌ

مشهورٌ بالحنكةِ الحربيةِ والشجاعةِ، واستمرَّ الحصارُ حتى فتحوا ثغرةً في برجِ العجميِّ وعندئذٍ أرسلَ الخليفةُ وزيرَهُ ابنَ العلقميِّ إلى هولاكو يقول:

«إن الملكَ قد أمرَ بأنَ أبعثَ له بالوزيرِ، وها أنا ذا قد لبيتُ طلبهُ فينبغي أن يكونَ الملكُ عند كلمتهِ» فردَّ هولاكو قائلاً «إن هذا الشرطَ طلبتهُ وأنا على بابِ همذانَ أما الآن فنحن على باب بغدادَ.

وفي اليوم التالي خرجَ للقاء هولاكو الوزيرُ ابنُ العلقمي والدواتدار وجمعٌ من الأعيانِ أو المشاهيرِ ودارتْ حربٌ طاحنةٌ مدةَ ستةِ أيامٍ وفي مساءِ الثامنِ والعشرينَ من محرم ٦٥٦هـ تسلمَ المغولُ جميعَ الأسوارِ الشرقيةِ.

وبعدَ حصارٍ ضارٍ ومحاولاتٍ لصدّ المغولِ عن

الإستيلاءِ على بغدادَ يئسَ الخليفةُ من الاحتفاظِ ببغدادَ أعلنَ أنهُ سيستسلمُ وأرسلَ فخرَالدينِ الدامغاني إلى هولاكو مع بعضِ الهدايا وفي ٢٩ محرم ٦٥٦ خرجَ من بغدادَ للقاءِ هولاكو ابنُ الخليفةِ عبدُ الرحمن ومعه جماعةٌ من رجالِ الدولةِ مع بعضِ الهدايا أيضاً فردهم هولاكو ولم يقبلْ منهم شيئاً وفي الغدِ خرجَ ابنُ الخليفةِ الأكبرُ وفعلَ به هولاكو ما فعلَ بأخيهِ الأصغرِ إذ ردّهُ دونَ أن يتقبلَ الهدايا أو يتفاوضَ معه.

ثم خرجَ رجالُ الدولةِ مع عددٍ كبيرٍ من الجنودِ معلنين طاعَتَهُمْ لهولاكو فقُسّموا ألوفاً ومئاتٍ وعشراتٍ وقتلهم المغولُ جميعاً وهربَ عددٌ من سكانِ بغدادَ إلى الأنفاقِ ومواقدِ الحماماتِ.

وفي يومِ الجمعةِ ٢ صفر ٦٥٦ قَتَلَ الدواتدارُ

(رئيس ديوانَ الخليفة) كما قَتَلَ هولاكو سليمان شاه مستشارَ الخليفةِ مع كافةِ أتباعهِ وأشياعهِ، وقَتَلَ الأميرَ تاجَ الدين ابنَ الدواتدار.

وفي يوم الأحد ٤ صفر ٦٥٦ خرجَ الخليفةُ مع أبنائهِ الثلاثةِ: أبو الفضل عبدُ الرحمنِ وأبو العباس أحمدُ وأبو المناقب مباركٌ، وكانَ معه ثلاثةُ آلافٍ من الساداتِ والقضاةِ والأكابرِ وأعيانِ بغدادَ وقابلَ هولاكو خان الذي كلَّمَ الخليفةَ بالحسنى وقالَ له: «مُرْ حتى يضعَ سكانُ المدينةِ أسلحَتهُمْ ويخرجوا لكي نحصيَهم»

وألقى الناسُ أسلحتَهمْ زمراً زمراً. وكان المغولُ يقتلونهم جماعةً بعد جماعةٍ وأمرَ هولاكو بأن تقامَ للخليفةِ خيمةٌ ببوابةِ (كلواذي) وأن ينضمَّ إليه أبناؤُهُ وأتباعُهُ وأن يستقروا في معسكرِ /كيتو بوقا/ أحدِ أشهرِ قادةِ هولاكو.

ودخلَ المغولُ بغدادَ وفي يوم الأربعاء ٧ صفر بدأ القتلُ العامُّ والنهبُ والسلبُ وراحَ الجنودُ يحرقونَ الأخضرَ واليابسَ ويلقون الكتبَ والكراريس في نهرِ دجلةَ.

ودخلَ هولاكو قصرَ الخليفةِ وأمرَ بإحضارِهِ وقال له «إنكَ مضيفٌ ونحنُ الضيوفُ فهاتِ أحضرْ ما يليقُ بنا» وأمرَ الخليفةُ أتباعَهُ ففتحوا الخزائنَ وأخرجوا منها ألفي ثوبٍ وعشرةَ آلافِ دينارٍ ونفائسَ ومرصّعاتٍ وعدداً من الجواهرِ، فوزعَها هولاكو على القوادِ والأمراءِ. ثم صادر هولاكو أملاكَ الخليفةِ التي لم يظهرها وأحصَوْا لهُ عدداً كبيراً من الزوجاتِ السراري، يزيد على السبعمئة أنثى وألفَ خادمة وتوسلَ الخليفةُ لهولاكو أن يتركَ له زوجاتِهِ وسراريهِ فقال له: اخترْ مئةٍ منهنَّ واتركْ الباقيَ ثم صادرَ أموالَ الخليفةِ ومقتنياتِهِ ومقتنيات أهله وأقاربه.

وبعدَ أيامٍ من إباحةِ المدينةِ أوفدَ سكانُها شرفَ الدينِ المراغي وشهابَ الدينِ الزنجاني إلى هولاكو، وطلبوا الأمانَ، فصدَرَ الأمرُ بالتوقف عن القتلِ والنهبِ، وظفرَ بالأمانِ أولئك الذين نجوا من السيفِ.

وفي يوم الأربعاء ١٤ صفر ٦٥٦ هـ رحلَ هولاكو عن بغدادَ بسببِ عفونةِ الهواءِ، ثم استدعى الخليفةَ فخافَ المستعصمُ خوفاً شديداً وسألَ وزيرَهُ ابنَ العلقميّ قائلاً «ما حيلتنا» أشارَ الوزيرُ على الخليفةِ أن يستسلمَ. وقد سادَ الاضطرابُ والترددُ والفزعُ الخليفةَ وبطانتَهُ، ولما يئسَ الخليفةُ من إنقاذِ حياتِهِ استأذنَ في أن يذهبَ إلى الحمامِ ليجددَ اغتسالَهُ فأمرَ هولاكو بأن يذهبَ معه خمسةً من المغولِ ولكن الخليفةَ رفضَ الموافقةَ على أن يصحبَهُ أحدٌ من المغولِ.

وفي مساءِ اليوم نفسِهِ قُتِلَ الخليفةُ وابنُهُ الأكبرُ وخمسةٌ من الخدمِ كانوا في خدمتِهِ، وفي اليوم التالي قَتَلوا جميعَ الذينَ كانوا مع الخليفةِ في بوابةِ كلواذي ببغدادَ، ثم قضوا على كلِّ من وجدوهُ حياً من العباسيين ولجأ مباركٌ الابنُ الأصغرُ للخليفةِ إلى إحدى نساءِ المغولِ فأنقذتهُ من الموتِ.

وبمصرعِ الخليفةِ وأبنائِهِ تمَّ القضاءُ على دولةِ بني العباسِ التي دامتْ /٥٢٥/ عاماً وكان عددُ خلفائهم سبعةً وثلاثين خليفةً.

وأبقى هولاكو على ابنِ العلقميّ الوزير وأمرهُ بالقيامِ بشؤونِ الدولةِ وأصبحَ فخرُ الدينِ الدامغاني صاحبَ الديوانِ، والإبقاء على ابنِ العلقميِّ مسألةٌ مريبةٌ إلى حدٍّ كبيرٍ، وقد اتهمَ بخيانةِ خليفتِهِ.

وجاءَ وفدٌ من حلبَ وقابلَ هولاكو خان

فحمَّلَهمْ رسالةً للخواجة نصيرِ الدينِ الطوسي وهذا نصها :

«أما بعدُ فإنّا نزلنا بغدادَ سنة ٦٥٦ فساء صباحُ المنذرين فدعونا مالكها فأبي فحقَ عليهِ القول فأخذناه أخذاً وبيلا وقد دعوناك إلى طاعتنا فإن أتيتَ فروحٌ وريحانٌ، وإن أبيتَ فخزيٌ وخسرانٌ، فلا تكنْ كالباحثِ عن حتفِهِ بظلفهِ، والجادعِ أنفِهِ بكفِهِ فتكونَ من الأخسرين أعمالا الذين ضلَّ سعيهُم في الحياةِ الدنيا وهمْ يحسبونَ أنهمْ يحسِنونَ صنعاً. فما ذلك على اللهِ بعزيزٍ، والسلامُ على من اتبعَ الهدى»

أعمالُ التتارِ بعدَ احتلالِ بغدادَ

أرسلَ هولاكو خان الخزائنَ والأموالَ الوافرةَ التي استولى عليها إلى أذربيجانَ واستعدَّ للزحفِ على ديارِ مصرَ والشامِ.

وأقبلَ الأمراءُ والملوكُ من جميعِ النواحي يبدونَ الطاعةَ والخضوعَ لهولاكو خان بعدَ سقوطِ بغدادَ في أيدي المغولِ حتى إنَّ أحدهمْ وهو السلطانُ عزُّ الدينِ الذي حاربَ المغولَ فترةً من الزمنِ صنعَ حذاءً ونقشتْ صورتُهُ على نعلِ الحذاءِ قدمهُ لهولاكو خان أثناءَ معاتبتِهِ إياهُ. وعندما وقعَ نظرُ هولاكو على تلكَ الصورةِ، قَبّلَ عزُّ الدينِ الأرض وقالَ «إن أملي هو أن يشرِّفَ الملكُ رأسَ هذا العبدِ بوضعِ قدمِهِ المباركةِ عليها فرقَّ له هولاكو خان ورفعتْ زوجتُهُ /دوقوز خاتون/ من قدرهِ وتشفعَتْ له، فعفا عنهُ.

هولاكو في طريقه إلى الإستيلاءِ على دمشقَ

وفي عام ٦٥٧ سارَ هولاكو إلى شرقيِّ الفراتِ

واحتلَّ مدينةَ حرّانَ واستولى على بعضِ مدنِ الجزيرةِ وأرسلَ ابنَهُ يشموتَ إلى الشامِ، فوصلَ إلى ضواحي حلبَ في آخرِ ذي الحجةِ عامَ ٦٥٧ وكان الحاكمُ في حلبَ هو الملك المعظَّم توران شاه ابن السلطانِ صلاحِ الدينِ نائباً عن ابنِ أخيهِ الناصرِ يوسفَ. فخرجَ المعظمُ لقتالِ التتارِ ومعهُ عددٌ كبيرٌ من المحاربين فتظاهرَ التتارُ بالإنكسارِ والهزيمةِ وكانوا قد أعدوا كمائنَ إلى جانبيْ الطريقِ فلما اندفعَ الحلبيونَ وراءَ التتارِ ارتدَّ هؤلاءِ عليهم يقتلونَ فيهمْ حتى دخلوا حلبَ، واختنقَ الناسُ على أبوابِ البلدِ لشدةِ خوفِهمْ وكانتْ هزيمةً منكرةً للملكِ المعظَّمِ توران شاه.

استيلاءُ التتارِ على حلبَ

وفي يوم الأحد ٩ صفر عام ٦٥٨ عبرَ هولاكو

خان الفراتَ متجهاً نحو حلبَ، وأرسلَ إلى الملكِ المعظَّمِ توران شاه حاكِمِ حلبَ قائلاً له «إنكمْ تضعفونَ عن لقاءِ المغولِ ونحن قصدُنا الملكُ الناصرُ (حاكمُ الشامِ) والعساكرُ التي معهُ من فاجعلوا لنا عندكمْ بحلبَ شحنةً (آمرُ مَوقع) وبالقلعةِ شحنةً ونمضي نحن إلى الناصرِ يوسفَ فإن كسرناهُ كانت البلادُ لنا وتكونون قد حقنتمْ دماءَ المسلمينَ، وإن كسرونا كنتمْ مخيرينَ في طردِ الشحنتينِ أو قتلهما، فردَّ المعظَّمُ على هولاكو قائلاً «ما لكمْ عندنا إلاّ السيفُ.»(إحاطة التتارُ بحلبَ)

وفي اليوم التالي هاجمَ التتارُ حلبَ وقُتِلَ عددٌ من أهلِها، واشتدتْ مضايقةُ التتارِ من جهةِ /قلعةِ الشريفِ/ وهي واقعةٌ في الجهةِ الجنوبيةِ من حلبَ في التاسعِ من صفرِ، ودامَ القتلُ والنهبُ من الأحدِ

إلى الجمعةِ ١٤ صفر ونادى هولاكو بالأمانِ، ولم يسلمْ من أهلِ حلبَ إلاّ من التجأ إلى دار شهابِ الدينِ بنِ عمرون وعددٌ آخرْ منهم علمُ الدينِ قيصر الموصلي ونجا من سكانِ حلبَ ما يزيدُ على خمسينَ ألفاً، وحاصرَ التتارُ قلعتها الشهيرةَ وفيها الملكُ المعظَّمُ توران شاه ابن السلطانِ صلاحِ الدينِ.

ولما فُتِحتْ حلبُ قدمَ كبراءُ حماةَ إلى حلبَ يحملونَ مفاتيحَ مدينتهِمْ إلى هولاكو خان فأرسلَ معهمْ شحنةً (أي مدير شرطة أو آمر موقع) اسمُهُ خسروشاه ودخلتْ المدينةُ في طاعةِ التتارِ أما صاحبُها الملكُ المنصورُ فإنهُ لحقَ بالملكِ الناصرِ في طريقهما إلى مصرَ.

وكان في مصرَ الملكُ المظفرُ فأحسنَ استقبالَ الناصرِ صاحبِ دمشقَ والمنصورِ صاحبِ حماةَ ومن

كان معها وطيبَ قلوبَهمْ، واستولتْ التتارُ على دمشقَ وسائرِ الشامِ إلى غزةَ.

وأمّا قلعةُ حلبَ فقدْ وثبَ جماعةٌ من أهلِها في مدةِ الحصارِ على صفيِّ الدينِ بنِ طرز رئيسِ حلبَ ونجمِ الدينِ أحمدَ بنِ عبدِ العزيزِ وقتلوهُما اتهاماً لهما بمواطأةِ التترِ، ودامَ حصارُ القلعةِ شهراً ثم سلّمتْ بالأمانِ يومَ الإثنينِ ١١ ربيع الأول ٦٥٨.

واستسلمَ صاحبُ حمصَ الأشرفُ موسى بنُ ابراهيمَ بن شيركوه إلى هولاكو ولم يلحقْ بالناصرِ.

ثم رحلَ هولاكو إلى /حارم/ فامتنعوا أن يسلمّوها إلاّ إلى فخرِ الدينِ والي قلعةِ حلبَ فأحْضِرَ وسلِّمتْ إليه فغضبَ هولاكو وأمرَ بقتلِهِمْ عن آخرهِمْ وسبى النساءَ ثم عادَ هولاكو إلى حلب، فعزلَ واليها الجديدِ عمادِ الدينِ القزويني وأمرهُ بالرحيلِ إلى

بغدادَ وجعل عليها رجلاً أعجمياً وأمرَ هولاكو بخرابِ أسوارِ حلبَ وسورِ المدينةِ فَخربتْ.

دخول التتار دمشق

في آخرِ صفرِ عام ٦٥٨ وصلَ التتارُ إلى دمشقَ بقيادةِ كَتْبُغا نويان، فتلقاهُ أهلُ دمشقَ بالرحبِ والسعةِ وكتب هولاكو خان أماناً لأهلِ دمشقَ.

أما قلعتُها فقدْ امتنعتْ عن التسليمِ فأحضرَ التتارُ عشرينَ منجنيقاً وخربوا جدراناً كثيرةً ثم فتحَ مُتولِّيها أبوابَها وقتلوا متوليها بدرَ الدينِ بن قراجا ونقيبَها جمالَ الدينِ بنِ الصيرفي الحلبي.

وأخذتْ جيوشُ التتارِ تغير على بقيةِ بلادِ الشامِ، فاحتلتْ غزةَ وبيتَ جبريل والخليلَ.

معركة عين جالوت
٢٥ رمضان ٦٥٨ هـ

انقضَّ التتارُ على مدنِ فلسطينَ خلالَ زحفِهِمْ إلى الجنوبِ. وأرسلَ هولاكو خان رسالةً إلى ملكِ مصرَ المظفرِ قُطُز يهددهُ فيها و يقولُ:

من ملكِ الملوكِ شرقاً وغرباً الخاقان الأعظم:

«باسمكَ اللهمَّ باسطَ الأرضِ ورافعَ السماءِ، يعلمُ الملكُ المظفرُ قُطُز الذي هو من جنسِ المماليكِ الذين هربوا من سيوفِنا إلى هذا الإقليمِ، يتنعمونَ بإنعامه، و يقتلونَ من كان بسلطانهِ.

بعد ذلكَ يعلمُ الملكُ المظفرُ قُطُز وسائرُ أمراءِ دولتهِ وأهلِ مملكتهِ بالديارِ المصريةِ وما حولَها من الأعمالِ: أننا نحنُ جندُ اللهِ في أرضِهِ، خلقَنا من سخطِهِ، وسلَّطَنا على من حَلَّ بهِ غضبُهُ، فلكمْ بجميعِ البلادِ مُعْتَبَرٌ، وعن عزمِنا مزدجر «فاتَّعِظُوا بغيركمْ، وأسْلِموا إلينا أمرَكمْ، قبلَ أن ينكشف الغطاء فتندموا و يعودُ عليكم الخطأ، فنحنُ ما نرحم من بكى، ولا نرقُّ لمن شكا، وقد سمعتمْ أننا فتحنا البلادَ وطهرنا الأرضَ من الفسادِ، فعليكم الهربُ، وعلينا الطلبُ، فأيُّ أرضٍ تؤويكمْ؟ وأيُّ طريقٍ تُنجيكمْ، وأيُّ بلادٍ تحميكمْ؟ فمالكم من سيوفِنا خلاصٌ، ولا من مهابتِنا مناصٌ، فخيولنا سوابقُ وسهامُنا خوارقُ، وسيوفنا صواعقُ. وقلوبُنا كالجبالِ، وعددنا كالرمالِ. فالحصونُ لدينا لا تمنعُ، والعساكرُ لقتالِنا

لا تنفعُ، ودعاؤكمْ علينا لا يُسْمَعُ، فإنكم أكلتم الحرامَ، ولا تعفّون عند الكلام، وخنتُم العهودَ والإيمانَ، وفشا فيكم العقوق والعصيانْ، فأبشروا بالمذلةِ والهوانِ «فاليومَ تُجْزوْنَ عذابَ الهونِ بما كنتمْ تستكبرونَ في الأرضِ بغيرِ الحقِّ وبما كنتمْ تفسقونَ، وسيعلمُ الذينَ ظلموا أيَّ منقلبٍ ينقلبونَ».

وحينَ قرأ الملكُ المظفرُ هذا الكتابَ جمعَ الأمراء فاتفقوا على قتلِ رسلِ هولاكو والمسيرِ إلى حربهِ، فقُتِلَ الرسلُ، وشرعَ الملكُ المظفَّرُ في حضِّ الأمراءِ على الاستعدادِ لحربِ التتارِ. وكانَ الأمراء يكرهونَ قيامَ هذهِ الحربِ لأنهمْ عرفوا مبلغَ قوةِ التتار وتعطّشهمْ للدماءِ.

وجمعَ الملكُ المظفرُ المحاربينَ من مصرَ وعساكرِ

الشامِ من التركمانِ، وأعلنَ الدعوةَ إلى الجهادِ في سبيلِ نصرةِ دينِ رسولِ اللهِ محمدٍ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ.

وحينَ اجتمعَ الجيشُ وطلبَ الملكُ من الأمراءِ والقادةِ المسيرَ لقتالِ عدوهِمْ تردَّدَ هؤلاءِ الأمراءُ في الزحفِ وتهيبوا قتالَ التتارِ، فخاطبهم قائلاً: يا أمراء المسلمينَ! لكم زمانٌ تأكلونَ أموالَ بيتِ المالِ، وأنتمْ للغزاةِ كارهونَ، وأنا متوجهٌ، فمن اختار الجهادَ يصحبني، ومن لم يخترْ ذلكَ يرجعْ إلى بيتهِ، فإن الله مطَّلعٌ عليهِ، وخطيئةُ حريمِ المسلمينَ في رقابِ المتأخرينَ»

وبعد مداولةٍ وأخذٍ وردٍ مع الأمراءِ وافقَ الجميعُ على خوضِ الحربِ ضدَّ التتارِ.

وفي صباحِ اليوم التالي تحركتْ جيوشُ الملكِ

المظفرِ وقرعتْ الطبولُ معلنةً مسيرَهُ للحربِ، وسارَ المِلكُ، كما سارَ الأمراء كُلٌّ على رأسِ فرقتِهِ ثم أمرَ الملكُ قُطُز الأميرَ ركنَ الدينِ بيبرس البند قداري أن يتقدمَ الجيشَ في عسكرٍ ليعرفَ أخبارَ التتارِ، فسارَ بيبرسُ إلى غزةَ، فرحلَ عنها التتارُ، وامتلكَ بيبرسُ غزةَ.

وتقدمَ الملكُ إلى غزةَ وأقامَ بها يوماً واحداً ثم رحلَ من طريقِ الساحلِ إلى مدينة عكا، فخرجَ إليه الفرنجُ الذين كانوا يحتلونَها وقدموا إليه الهدايا وعرضوا مساعدتهمْ، فرفضَ المساعدةَ وطلبَ منهم أن يكونوا حياديينَ لا لهُ ولا عليهِ وحلفَ لهم أنه لو شاهدَ منهمْ واحداً يعاونُ التتارَ عليهِ فإنهُ سيرجعُ ليقاتلهمْ قبل أن يلقى التتارَ.

وجمع قُطُز الأمراءَ وحضهم على منازلةِ التتارِ، وذكّرهمْ بما فعلهُ التتارُ بأبناءِ البلادِ، والأرواحِ التي

أزهقُوها، والنهبِ والسلبِ والسبي والحرائقِ والتدميرِ والتخريبِ وخوفهم من وقوعِ مثلِ ذلكَ في ديارِهِمْ وحثهم على تحريرِ الشامِ من التتارِ ودفعهِمْ عن البلاد.

وِأمرَ الملكُ المظفرُ أحدَ قوادِهِ الأميرَ ركنَ الدينِ بيبرسَ البندقداريّ أن يسيرَ بقطعةٍ من الجيشِ ليستكشفَ متجمعاتِ التتارِ فسارَ حتى إذا لقي طليعتَهمْ كتبَ إلى السلطانِ يعلمهُ بذلك، وأخذَ في مناوشتهِمْ إلى أنْ لحقَ به السلطانُ في موقعِ (عين جالوت) /وعين جالوت بلدة صغيرة واقعة بين بيسان ونابلس/.

والتحمَ ركنُ الدين بيبرس بطليعةِ التتارِ بقيادةِ /كَتْبُغا/ نائبُ هولاكو، وتغلبَ ركنُ على كتبغا. وتقهقرتْ جنودُ القائدِ المغولي.

وفي يومة الجمعةِ ١٥ رمضان ٦٥٨ جاءَ التتارِ بجموعٍ والتحمَ الجيشانِ، وقرعتْ طبولُ الملكِ المظفرِ دونَ انقطاعٍ وتراجعتْ ميمنةُ الملكِ، فاضطربَ الجيشُ المصريُّ، فتقدمَ الملكُ المظفرُ نحوَ الجنودِ وألقى بخَوذتِهِ عن رأسِهِ إلى الأرضِ وصرخَ بأعلى صوته «وا إسلاماه» وحمل بنفسِهِ وبمن معهُ حملةً صادقةً، وقُتِلَ كتبغا قائدُ التتارِ وعدةٌ من الأمراءِ الذين معه، وانهزمَ باقيهمْ، واندفعتْ الجيوشُ المصريةُ تطاردهمْ قتلاً وأسراً، وأبلى الأميرُ ركنُ الدينِ بيبرس في هذهِ المعركة بلاءً حسناً، وطاردت الجيوشُ المصريةُ التتارَ نحو بيسان، وفوجىءَ المصريونَ بجموعِ التتارِ التي انضمتْ إليها الجموعِ المنهزمةِ التي كانتْ بقيادةِ كتبغا، فكوّنوا جبهةً قويةً جداً أعظمَ مِن الجبهةِ الأولى. وقاتلهمْ المسلمونَ قتالاً شديداً. ورأى

الملكُ المظفَرُ أنَّ الهلاكَ محيقٌ بهِ فصرخَ في جنودهِ صرخاتٍ مدويةً يحضهُم فيها على القتالِ وفعلَ كما فعلَ في الأزمان السابقة ونادى (وا إسلاماه) ثلاثَ مراتٍ وتوسلَ إلى اللهِ قائلاً «اللهمَّ انصرْ جندك وعبدكَ قُطُز على التتارِ».

واستماتَ الأمراءُ وكروا كرةً عظيمةً على التتارِ، فتمزَّقَ شملهمْ، ونزلَ الملكُ المظفرُ عن فرسِهِ وقرَّعَ وجهَهُ على الأرضِ وقبَّلَها خشوعاً للهِ وصلّى ركعتينِ شكراً للهِ تعالى.

إن معركةَ عينِ جالوتَ هي من المعاركِ الفاصلةِ في تاريخِ العربِ والإسلامِ، إذ أنَّ التتارَ حتى ذلكَ التاريخِ لم ينهزموا هزيمةً فاصلةً سوى هذه الهزيمةِ، وقد تلاشتْ آمالُ هولاكو في الإستيلاءِ على مصرَ

والشامِ، ولا شكَّ في أنَّ أهمَّ الأسبابِ التي حققتْ هذا النصرِ إخلاصَ الملكِ المظفرِ.

ودخلَ الملكُ دمشقَ في احتفالٍ عظيمٍ وذلكَ في أواخرِ رمضانَ /٦٥٨ هـ/ ونزلَ في قلعةِ دمشقَ، وأرسلَ قائِدَهُ ركنَ الدينِ البندقداري لملاحقةِ التتارِ، فأخرجهمْ من بلادِ الشامِ.

ولما استقرَ الملكُ بدمشقَ نظَّمَ أمورَها واستنابَ بها علمَ الدين سنجرَ الحلبيَّ واستنابَ بحلبَ الملكَ السعيدَ بدرَ الدينِ لؤلؤ صاحبَ الموصلِ،
عزمَ الملكَ المظفرُ على العودةِ إلى مصر.

وكان ركنُ الدينِ بيبرس البندقداري قد سألَ الملكَ المظفرَ نيابةَ حلبَ فلم يجبهُ إليها، فنوى أن يغتاله وبينما كانوا في طريقهم إلى مصرَ اتفقَ بيبرسُ

مع /أنصَ/ مملوكِ نجمِ الدينِ الروميِّ الصالحيِّ، وعلمِ الدينِ طعان أو عني على قتلِ المظفرِ قُطُز، وسارُوا معه يتوقعون الفرصة.

وفي الطريقِ ساقَ الملكُ جوادَهُ خلفَ أرنبٍ يريدُ اصطيادَها ولحقَ بهِ المتآمرونَ بعدَ أن ابتعدَ مسافةٍ كافيةٍ فتقدمَ /أنصُ/ من الملكِ وشفعَ عنده في إنسانٍ فأجابَهُ إلى ذلكَ، فأهوى ليقبلَ يَدَهُ وقبضَ عليها، فحملَ عليهِ بيبرسُ البندقداري وضربَهُ بالسيفِ، واجتمعوا عليهِ فرموه عن فرسِهِ وقتلوهُ. وقد كانت مدةُ ملكِهِ أحدَ عشرَ شهراً وثلاثة عشرَ يوماً.

ودخلوا مصرَ فبايعَ أهلُها ركنَ الدينِ بيبرسَ وتلقبَ بالملكِ القاهرِ ثم غيَّرهُ إلى الظاهرِ، بعدَ ما بلغَهُ أنَّ القاهرَ لقب غير مُباركٍ ولم تطلْ مدةُ من تلقبَ بهِ.

وكانت القاهرةُ قد زُيِّنَتِ لاستقبالِ المظفرِ قُطُزْ فاستمرتْ الزينةُ لسلطنةِ الظاهرِ بيبرسَ فسبحانَ محوّلِ الأحوالِ.

بعد هزيمةِ التتارِ في عينِ جالوتَ

سارَ التتارُ إلى حلبَ في نهايةِ عام ٦٥٨ هـ وقتلوا غالبَ أهلِها ثم ساروا إلى حماةَ فاحتلوها ووصلوا إلى حمصَ يومَ الجمعةِ خامسِ محرم عام ٦٥٩ واجتمعَ المَنصورُ صاحبُ حماةَ والأشرفُ صاحبُ حمصَ على قتالهمْ فانهزمَ التتارُ قبلَ أن يدخلوا حمصَ ولحقوا بالسلميةِ ثم دخلوا حماةَ يوماً واحداً وخرجوا منها إلى أفامية (قلعةِ المضيقِ).

وأرادَ هولاكو أن ينتقمَ لقتلى التتارِ في عينِ

جالوتَ وحمصَ فأحضرَ الملكَ الناصرَ يوسفَ بنَ عبد العزيزِ محمد ابنِ الظاهرِ غازي ابنِ السلطانِ صلاحِ الدينِ الأيوبي وكانَ في أسرِ هولاكو في مدينةِ تبريزَ، كما أحضرَ أخاه الملكَ الظاهرَ غازي وقالَ مخاطباً الملكَ الناصرَ: أنتَ قلتَ إنَّ عسكرَ الشامِ في طاعتِكَ فغررتَ بي وقتَّلتَ المغولَ! فقالَ الملكُ الناصرُ: لو كنتُ في الشامِ ما ضربَ أحدٌ في وجهِ عسكركَ بالسيفِ، وَمنْ يكونُ ببلادِ تبريزَ كيف يحكمُ على مَنْ بالشامِ؟ ففوَّقَ هولاكو سهماً وضربَهُ بهِ، ثم رماهُ بسهمٍ ثانٍ فقتلهُ، كما قتلَ أخاه الظاهرَ.

وكانَ الملكُ الناصرُ يوسفُ يحكمُ رقعةً واسعةً من العالمِ العربيِ والإسلاميِ وتضمُّ حَرآنَ والرها (أورفة) والرقةَ ورأسَ العينِ وما يجاورها وحمصَ ودمشقَ وبعلبكَّ والأغوارَ في فلسطينَ والسواحلَ إلى غزةَ، وخُطبَ له بمصرَ.

وفي /١٩/ ربيع الآخر عام /٦٦٣هـ/ ماتَ هولاكو على دينهِ الوثنيِّ بعدَ أن أصيبَ بالصرعِ، وكانَ جدُّهُ جنكيزخانَ وقد تركَ خمسةَ عشرَ ابناً، وملكَ بعدهُ ابنه /أبْغا/ وكان هولاكو يحكمُ خراسانَ ونيسابورَ وعراقَ العجمِ وأصفهانَ وعراقَ العربِ وبغدادَ وأذربيجانَ وتبريزَ وخوزستانَ وتستَر، واقليمَ فارسَ وشيرازَ، وديارَبكر والموصلَ وبعضَ بلادِ الرومِ وقونيه، وكانتْ مدةُ حكمِهِ عشرَ سنينَ.

وفي رجبِ ٦٨٠ أقبلَ التتارُ بجموعٍ كثيفةٍ وعلى رأسهِمْ أبغا بنُ هولاكو الذي خلفَ أباه فوصلَ إلى حمصَ ثم سيّرَ جيوشَهُ إلى الشامِ وعلى رأسِها (منكوتَمِر) أخو (أبغا) بن هولاكو واشتبكَ التتارُ بجيوشِ المسلمينَ بقيادةِ السلطانِ المنصورِ في يوم الخميسِ ١٤ رجب /٦٨٠هـ/ فانتصرَ المسلمونَ على

التترِ، وانهزمَ منكوتمر، ثم انهزمتْ ميسرةُ المسلمينَ فَكَرَّ التتارُ عليهم وقتلوا خلقاً كثيراً، وحين علموا بهزيمةِ جيشِهمْ وعلى رأسِهم منكوتَمِر انهزموا وتبعهمْ المسلمونَ يقتلونَ و يأسرونَ، وكانَ التتارُ نحو ثمانين ألفاً وخمسون ألفاً من المغولِ والباقونَ من الكرجِ وغيرهمْ.

وبلغت الهزيمةُ مسامعَ أبغا ملكِ التتارِ وهو محاصرٌ الرحبةَ قربَ الميادينَ على الفراتِ فارتدَّ على عقبهِ منهزماً.

وماتَ منكوتَمِر بن جنكيز خان، ماتَ بجزيرةِ ابنِ عمرَ كمداً من هزيمتهِ.

موتُ أبغا بنِ هولاكو خان

في شهرِ محرم ٦٨١هـ ماتَ أيضاً بنُ هولاكو ملكُ التتارِ في همذان مسموماً وكانتْ مدةُ حكمِهِ سبعةَ عشرَ عاماً وله ولدان أرغون وكيختو.

وتولى الملكَ على التتارِ بعدَ أبغا أخوهُ بيكدارُ بنُ هولاكو، فلما تَسَلَّمَ زمامَ الحكمِ أظهرَ الاسلامَ وتسمىٰ بأحمدَ سلطان، وأرسلَ رسلاً إلى السلطانِ الملكِ المنصورِ قلاوونَ برئاسةِ الشيخِ قطبِ الدينِ محمودِ الشيرازي قاضي سيواسَ وموضوعُ رسالةِ الوفدِ هو إعلامُ السلطانِ المنصورِ بإسلامِ بيكدارَ وتسميه

بأحمدَ سلطان، وطلبُ الصلحِ بين المسلمينَ والتتارِ.

وبعدَ أيامٍ من إسلامِ بيكدارَ خرجَ أرغونُ بنُ أيغا بخراسان على عمهِ بيكدارَ أحمدَ سلطان وسارَ إليهِ فاقتتلا فانهزمَ أرغون وأخذهُ عمُّهُ أسيراً، وكانتْ نفوسُ المغولِ قد تغيرتْ على بيكدارَ بعد إسلامِهِ وحَثِّهِ التتارَ على الدخولِ في الإسلامِ، فعزموا على قتله وقصدوا أرغونَ في سجنه وأطلقوهُ، وقتلوا مستشارَ عمهِ (أحمد سلطان) ثم اتجهوا نحو معسكرهِ فهربَ فتبعوهُ وقتلوهُ، وجعلوا أرغونَ ابنَ أبغا بن هولاكو مكانَهُ.

وكانت الحرب قد انتقلتْ فترةً طويلةً فصارتْ ما بينَ أمراءِ المماليكِ حتى إذا جاء عامُ /٦٧٩هـ/ نشبت معاركُ بينَ الملكِ المنصورِ قلاوونَ صاحبِ مصرَ وجنوبِ الشامِ وبينَ شُنْقُرَ الأشقرِ فأرسلَ إليهِ الملكُ

قائدهُ سَنْجَر الحلبي فاستطاعَ أنْ يتغلبَ على شُنقُرَ بجنودِهِ شمالاً إلى دمشقَ.

وفي ١٢ صفر ٦٧٩ خرجَ الملكُ الكاملُ شُنْقُرُ من دمشقَ وجاءتهُ النجداتُ من حلبَ وحماةَ وعربِ الباديةِ، فالتقى الجيشانِ وانضمَّ عددٌ كبيرٌ من جنودِ شُنْقُرَ إلى العسكرِ المصريِّ عسكرِ الملكِ المنصورِ قلاوونَ وأخيراً انسحبَ شُنْقُرُ إلى الرحبةِ (بلدة قُربَ الميادينِ). ودخلتْ جيوشُ الملكِ المنصورِ دمشقَ بقيادةِ سَنْجَرَ الحلبيِّ.

هنا طمعَ من بقي من تجمعاتِ التتارِ واغتنموا فرصةَ هذا الانشقاقِ فداهموا بلادَ الشامِ قادمينَ من العراقِ، وأعملوا التخريبَ في مدينةِ حلبَ فكتبَ الملكُ المنصورُ قلاوونَ إلى شُنْقُرَ وهو في الرحبةِ، طالباً منهُ ان ينسى الخلاف لمصلحةِ الحرب وقال له: هذا

العدوُّ قد دهمنا، وماسببهُ إلاّ الخلافُ بيننا. والمصلحةُ أننا نجتمعُ على دفعِهِ. فامتثلَ شُنقُرُ لرأيِ قلاوونَ وكان التترُ يظنونَ أنهُ يكونُ معهمْ على حربِ قلاوونَ.

تولي الملكِ قازان حكمَ التتارِ وإسلامُهُ

وفي شهرِ ربيع الآخر عام ٦٩٤هـ قُتِلَ كيختو ابنُ أبغا بن هولاكو الذي ملكَ بعدَ أخيه أرغونَ بن أبغا بن هولاكو الذي مات في ربيع الأول عام /٦٩٠هـ/ فكانت مدة حكم كيختو أربع سنين.

فتولى الحكمَ بعده ابنُ عمه بيدو بن طرغية بن هولاكو، ولما علمَ الملكُ قازانُ حفيدُ هولاكو بما تمَّ زحفَ منْ خراسانَ وجمعَ حولهُ جماعاتٍ من المغولِ، وسارَ إلى قتالِ بيدو.

وكانَ قد أصبحَ ملكاً عامَ ٦٩٣هـ وقد دعاهُ تورُوزُ نائبُ سلطنتِهِ إلى الإسلامِ، فقبلَ بذلكَ وقامَ من ساعتِهِ فدخلَ الحمامَ فاغتسلَ. وعقدَ مجلساً عظيماً. حيثُ قامَ الشيخُ صدرُ الدينِ إبراهيمُ الجويني فلقَّنهُ الشهادتينِ فنطقَ بهما أمامَ المجلسِ، ونثرَ الذهبَ والفضةَ واللؤلؤَ على رؤوسِ الناسِ، وانتشرَ الإسلامُ بين التتارِ، كما لقنهُ نوروزُ شيئاً من القرآنِ الكريمِ، وعلمهُ الصلاةَ والصيامَ وكانَ إذ ذاك يملكُ بلادَ إيرانَ وأذربيجانَ والعراقِ والجزيرةِ العربيةِ.

وفي عامِ ٦٩٩ زحفَ نحوَ سوريةَ بإغراءِ الأميرِ قبجق نائبِ دمشقَ الذي لجأ إلى قازانَ، ووقعت معركةٌ عظيمة بينهُ وبينَ الجيشِ المملوكيِّ بوادي الخزندار قربَ سلميةَ.

وكانَ الملكُ الناصرُ محمدُ بنُ قلاوونَ سلطانُ مصرَ والشامِ قد سارَ في أولِ عامِ /٦٩٩ هـ/ نحوَ الشامِ للدفاعِ عنها ضدَّ التتارِ بقيادةِ قازانَ ملكهمْ الذي أسلمَ كما قدمنا وسمّى نفسهُ محموداً.

قدمَ الملكُ الناصرُ ومعهُ عساكرُ مصرَ، وأمراؤها وقد كثر تحاسُدُهُم وتنافسُهمْ لكثرةِ سعايتهم وثروتِهم وأصابَهمْ الأَشَرُ والبطرُ، فلما وصلوا إلى غزةَ انهمكوا في الصيدِ واللهوِ.

ودخلَ السلطانُ الناصرُ دمشقَ في ٨١ ربيع الأول ٦٩٩ هـ/، ثم تابعَ وصولُ الفلولِ المنهزمةِ التي يطاردُها الملكُ غازانَ ملكُ التتارِ، وغلتِ الأسعارُ في دمشقَ والبلادِ عامةً وشحتِ الأقواتُ، وانتشر بينَ الناسِ أخبارُ انكسارِ العساكرِ الشاميةِ، ووصولِ التتارِ إلى قربِ السلميةِ.

وتلاقى الجيشانِ بوادي الخزندارِ قربَ سلميةَ، وقدّمَ قازانُ أمامهُ عشرةَ آلافِ رام بالنشابِ فأصابتْ السهامُ خيولَ الجيوشِ المصريةِ الشاميةِ، وقتلتْ عدداً كبيراً من الخيولِ، وقذفتْ بفرسانِها إلى الأرضِ.

ورغمَ ذلكَ فلقدْ بدا للناسِ أن النصرَ سيكونُ حليفَ العربِ غيرَ أنَّ قبجق والي دمشقَ السابقِ الذي لجأَ إلى قازانَ نصحَ ملكَ التتارِ أن يثبتَ فيرى نتيجةَ صبرِهِ، وثبتَ قازانُ فتمّت الهزيمةُ على جيشِ المماليكِ وكانتْ هذهِ المعركةُ في يومِ الأربعاءِ ٢٨ ربيع الأول عام ٦٩٩هـ.

بعد المعركة

وقد غنمَ التتار كلَّ ما كانَ للجيشِ المملوكيِّ من قناعٍ وعتادٍ، ولحق قازانُ (وغازان واحد) بمدينةِ

حمصَ بعدَ أن غادرها الجيشُ المملوكيُّ وغنمَ الخزائنَ السلطانيةَ ثم أمرَ بالمسيرة إلى دمشقَ.

ودبَّ الخوفُ والرعبُ في نفوسِ عساكرِ الجيشِ المنهزِم، وفرَّ أعيانُ دمشقَ مع رجالِ الحكومةِ إلى القاهرةِ، ولم يبقَ في دمشقَ سوى قائدِ حاميةِ القلعةِ (أرْجَواشَ).

وخرجَ المسجونونَ فأعملوا النهبَ في المدينةِ وخرجوا إلى ريفِ دمشقَ يعيثونَ في الأرضِ فسادا واجتمعَ من بقيَ من أعيانِ دمشقَ في الجامعِ الأمويِّ وطلبوا الامان من قازان لأهلِ البلدِ وحملَ هذا الطلبُ شيخُ الإسلامِ تقيُّ الدينِ بن تيمية ومعهُ قاضي القضاةِ بدر الدينِ محمدُ بنُ جماعة.

وفي يومِ الثلاثاءِ ٤ ربيع الآخر اجتمعَ الوفدُ

بقازانَ في النبكِ وهو في زحفِهِ إلى دمشقَ وتكلمَ ابنُ تيميةَ فقالَ لهمْ غازانُ قد منحتكمُ الأمانَ، وبعثتُ بهِ إليكمْ مع وفدٍ آخرَ قد تقدمكمْ على رأسِهِ الشريفُ القمّي.

وفي يوم السبتِ ٨ ربيعِ الآخرِ ٦٩٩هـ جاءتْ طليعةٌ من جيشِ التتار على رأسِها أميرٌ تتاريٌّ اسمهُ اسماعيلُ ودعا الناسَ إلى الجامعِ الأمويِّ حيثُ قرأ عليهم فرمانَ التأمين التالي:

«بقوةِ الله ـ تعالى»

«ليعلمْ أمراءُ التومانَ (فرقة من عشرة آلافِ والمئةِ، وعمومُ عساكرِنا المنصورةِ من المغولِ والطاجيك، والكرج وغيرهمْ من هو داخلٌ تحتَ ربقةِ طاعتنا، أن اللهَ تعالى لما نوّرَ قلوبنا بنورِ الإسلامِ، وهدانا إلى ملّةِ النبيِّ عليه أفضلُ الصلاةِ

والسلامِ (أَفَمن شرحَ اللهُ صدرَهُ للإسلامِ فهو على نورٍ من ربهِ فويلٌ للقاسية قلوبُهُمْ من ذكرِ اللهِ أولئكَ في ضلالٍ مبين)، ولما أن سمعناأن حكامَ مصر والشامِ خارجونَ عنْ طريقِ الدين غيرَ متمسكينَ بأحكامِ الإسلامِ، ناقضونَ لعهودهمْ، حالفونَ بالأيْمان الفاجرةِ ليسَ لديْهمْ وفاءٌ ولا زمامٌ ولا لأمورهم التئامٌ ولا انتظامٌ، وكان أحدهُم (إذا تولى سعى في الأرضِ ليفسدَ فيها ويهلكَ الحرثَ والنسلَ واللهُ لا يحبُّ الفسادَ) وشاعَ من شعارهمْ الحيفُ على الرعيةِ، ومدُّ الأيدي العاديةِ إلى حريمهمْ وأموالهمْ، والتخطي عن جادةِ العدل والإنصافِ، وارتكابهمْ الجورَ والاعتاقَ، حملتنا الحميةُ الدينيةُ. والحفيظةُ الإسلاميةُ، على أن توجهْنا إلى تلكَ البلادِ لإزالةِ هذا العدوانِ، وإماطةِ هذا الطغيانِ، مستصحبينَ الجمَّ الغفيرَ من العساكرِ.

ونذرْنا على أنفسنا إنْ وفقنا اللهُ تعالى بفتح تلكَ البلادِ، أزلنا العدوانَ والفسادَ، وبسطنا العدلَ والإحسانَ في كافةِ العبادِ، ممتثلاً للأمرِ الإلهيِّ «إنَّ اللهَ يأمرُ بالعدلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذي القربى، وينهى عن الفحشاءِ والمنكرِ والبغي يعظكمْ لعلكمْ تذكرون» وإجابةً لما ندبَ إليه الرسولُ الأعظمُ صلى الله عليه وسلمَ «إنَّ المقسطينَ عندَ اللهِ على منابرِ من نورٍ عن يمينِ الرحمنِ —وكلتا يديهِ يمينٌ— الذينَ يعدلونَ في حكمهمْ وأهليهمْ وما ولوا»

وحيثُ كانتْ طويتُنا مشتملةً على هذهِ المقاصدِ الحميدةِ، والنذورِ الأكيدةِ، مَنَّ اللهُ علينا بتبلجِ تباشيرِ النصرِ المبينِ، والفتح المستبينِ، وأتم علينا نعمتَهُ، وأنزلَ علينا سكينتهُ، فقهرنا العدوَّ الطاغيةَ، والجيوشَ الباغيةَ، وفرقناهمْ أيديَ سبا، ومزَّقناهم

كلَّ ممزّقٍ، حتى (جاءَ الحقُّ، وزهقَ الباطلُ إن الباطل كانَ زهوقاً) فازدادتْ صدورُنا انشراحاً للإسلامِ، وقويتْ نفوسنا بحقيقةِ الأحكامِ، منخرطينَ في زمرةٍ من (حبَّبَ إليهمُ الإيمانَ وزينهُ في قلوبهمْ، وكرّهَ إليهمُ الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ، أولئكَ هم الراشدونَ فضلاً منَ اللهِ ونعمةً).

فوجبَ علينا رعايةُ تلكَ العهودِ الموثقةِ، والنذورِ المؤكدةِ، فصدرتْ مراسيمُنا التاليةُ ألا يتعرضَ أحدٌ من العساكرِ المذكورةِ على اختلافِ طبقاتِها، لدمشقَ وأعمالِها، وسائرِ البلادِ الإسلاميةِ الشاميةِ، وأنْ يكفوا أظفارَ التعدّي عن أنفسِهمْ وحريمِهمْ، ولا يحوموا حولَ حماهمْ بوجهٍ من الوجوهِ، حتى يشتغلوا بصدورٍ مشروحةٍ وآمالٍ مفسوحةٍ لعمارةِ البلادِ وبما هوَ كلٌّ واحدٍ بصددهِ، من تجارةٍ وصناعةٍ وغيرِ ذلكَ،

وكانَ من هذا الهرجُ العظيمُ وكثرةُ العساكرِ، أن تعرض بعضُ نفيرٍ يسيرٍ من السلاجقةِ وغيرهمْ إلى نهبِ بعضِ الرعايا، وأسرِهمْ فقتلناهمْ ليعتبرَ الباقونَ، و يقطعوا أطماعَهُمْ عن النهبِ والأسرِ وغيرِ ذلك من الفسادِ، وليعلموا أنا لا نسامحُ بعدَ هذا الأمرِ البليغِ البتةَ، وألا يتعرضو لأحدٍ من أهلِ أديانهمْ من اليهودِ والنصارى والصابئةِ، فإنهمْ إنما يبذلون الجزيةَ عنهم من الوظائفِ الشرعيةِ لقولُ علي عليهِ السلامُ: إنما يبذلون الجزيةَ لتكونَ أموالُهُمْ كأموالِنا، ودماؤهمْ كدمائِنا.

والسلاطينُ موصَوْنَ على أهلِ الذمةِ المطيعينَ كما همُ موصوْن على المسلمينَ، فإنهمْ من جملةِ الرعايا. قالَ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ «الإمامُ الذي على الناسِ راعٍ عليهِمْ، وكل راعٍ مسؤولٌ عن رعيتِهِ»

وسبيل القضاةِ والخطباءِ والمشايخ والعلماءِ والشرفاءِ والشرفاءِ والأكابرِ، والمشاهيرِ وعامةِ الرعايا الاستبشارُ بهذا النصرِ الهنيّ، والفتحِ السنيّ، وأخذُ الحظِ الوافرِ من السرورِ، والنصيبِ الأكبرِ من البهجةِ والحبورِ مقبلينَ على الدعاءِ لهذهِ الدولةِ القاهرةِ، والمملكةِ الظاهرةِ، آناءَ الليلِ وأطرافَ النهارِ،

كُتِبَ في الخامسِ من ربيعِ الآخرِ سنةَ تسعٍ وتسعينَ وستمئةٍ »

وفي يوم الأحدِ ٩ ربيع الأخر ٦٩٩ هـ جمعَ ما عندَ الناسِ من خيلٍ وبغالٍ وسلاحٍ وأموالٍ خاصةٍ بالدولةِ.

وفي الإثنين ١٠ ربيع الآخر ٦٩٩ وصلَ غازانُ إلى دمشقَ في مرجِ عدرا معَ جيشهِ. ووصلَ قبجق وبَكْتَمِر السلاح دار ومن معهما من المماليكِ الذين التجئوا إلى الملكِ محمودِ غازان إلى دمشقَ.

ومن جهةٍ ثانيةٍ عادَ الملكُ الناصرُ محمدُ بنُ قلاونَ إلى القاهرةِ منهزماً في وقعةِ وادي الخزندارِ. وأرسلَ الملكُ الناصرُ من مصرَ رسالةً إلى الأميرِ أرْجواشَ محافظِ القلعةِ يخبرُ حاميتَها أنهُ يستعدُّ لإنقاذِ الشامِ، فقويتْ نفوسُ رجالِ الحاميةِ بالقلعةِ، ونفوسُ بعضِ أهالي دمشقَ، وضُرِبَتْ طبولُ البشائرِ في القلعةِ، وسمعَ التتارُ بذلكَ فاغتموا غماً شديداً.

وحاولَ قبجقُ إقناعَ أرجواشَ بالتسليمِ فسبَّهُ وشتمهُ ورفضَ تسليمَها، وقد أرسلَ العالمُ الكبيرُ تقيُّ الدينُ بن تيميةَ إلى أرجواشَ سراً يقولُ له: لو لم يبقَ من القلعةِ إلاّ حجرٌ واحدٌ فلا تسلمهُ إن استطعتَ.

وكلمَ أعيانُ دمشقَ أرجواشَ أن يسلمَ القلعةِ،

وذكروا لهُ أنهمْ سيكونونَ عُرضَةً للسلبِ والنهبِ إذا لم تسلمْ القلعةُ للتتارِ، فلم يجبْ.

وحاولَ قبجق مرةً ثانيةً إقناعَ أرجواشَ بالتسليمِ فرفضَ.

وفي يوم الجمعةِ ١٤ ربيع الآخرِ ٦٩٩ خُطِبَ لغازانَ على منبرِ دمشقَ ولَقَبُهُ هو «السلطانُ الأعظمُ، وسلطانُ الإسلامِ والمسلمينِ، مظفرُ الدنيا والدينِ محمودُ غازان».

وحينَ أقيمتْ صلاةُ الجمعةِ صلى عددٌ من كبارِ التتارِ، فدعا الأميرُ قبجقُ للسلطانِ غازانَ وقرىءَ على الناسِ تقليدُ قبجقَ بلادَ الشامِ كلها مع سائرِ الأعمالِ. وجعلَ إليه ولايةَ القضاءِ، والخطباءِ، ونثرَ على الناسِ الدنانيرَ والدراهمَ ففرحوا بولايةِ قبجقَ لما يَعلمونهُ من عدلِهِ، وحسنِ إدارتِهِ.

وعمدَ التتارُ إلى حصارِ قلعةِ دمشقَ لإخضاعِ أرْجواشَ وإرغامهِ على تسليمِها.

واحتلوا الجامعَ الأمويَّ لتركيبِ المنجنيقِ على سطحِهِ، واخذوا يقومونَ بأعمالٍ سافلةٍ، فيأتونَ بالنساءِ المنحرفاتِ إلى الجامعِ و يقومونَ بأعمالٍ أسوأَ من ذلكَ بكثيرٍ، وأخذوا ينهبونَ الأسواقَ المحيطةَ بهِ.

وحاولَ التتارُ بكلِّ الوسائلِ أن يحتلوا القلعةَ ولكنهمْ عجزوا عنْ ذلكَ لشدةِ تيقظِ أرجواشَ واستماتَةِ المدافعينَ عنها، كما راحوا بفرضونَ على الأسواقِ أموالاً طائلةً، كما كانوا يضربونَ الناسَ و يعذبونَهمْ حتى يدفعوا للتتارِ ما يملكونَ من مالٍ و يقدموا للتتارِ كذلكَ السلاحَ والثيابَ والدوابَ والغلالَ.

عودة غازان إلى بلاده

ملأ التتارُ خزائِنَهُمْ مما نهبوهُ من المالِ الحرامِ فعزمَ السلطانُ محمودُ غازان على الرجوعِ إلى بلادِهِ لفترةٍ من الزمنِ، فقسمَ البلادَ وولّى عليها كبارَ الأمراءِ من المماليكِ الذينَ لجئوا إليه. فأعطى قبجقَ دمشقَ وأعمالَها. وأعطى بَكْتَمِرْ السلاحدار، حلبَ وحماةَ وحمصَ، وتركَ مع كلِّ أميرٍ عدداً من الجند المغوليّ، أما الأمير قُطجلو شاه فقد جعلهُ القائدَ العامَّ للجيشِ التتاري في الشامِ وعيّنَ أمراءً من المغولِ في الأغوارِ في فلسطينَ.

وأذاعَ السلطانُ بياناً قبْلَ عودتِهِ يقولُ فيه: إنا قد تركنا نوابَنا بالشامِ مع ستينَ ألف مقاتلٍ وسنعودُ في الخريفِ للزحفِ إلى الديارِ المصرية والإستيلاءِ عليها.

وفي يوم الجمعة ١٢ جمادى الأولى عام ٦٩٩هـ رحلَ قازان من دمشقَ. واستطاعَ الأميرُ قبجقُ أن يَحْملَ الأميرَ قُطلوشاه على أن يتركَ الشامَ بعدَ أن دفعَ لهُ مالاً جزيلاً، وتركَ قُطلوشاه نائِباً عنهُ الأميرَ التتاريَّ /بولاي/

وشعرَ بولايُ أنه لن يتمكن من البقاءِ في دمشقَ فقدْ سمعَ أن الجيوشَ المصريةَ قادمةٌ لطردِ التتارِ من الشامِ، فأرادَ أنْ يحصلَ على أكبر كميةٍ من المالِ قبلَ رحيلهِ فشرعَ في القتلِ والنهبِ والسلبِ وأغارَ

على أغوارِ فلسطينَ وهاجمَ مدينةَ غزةَ وقتلَ في جامعِها خمسةَ عشرَ رجلاً.

وذهبَ العالمُ الكبيرُ تقيُّ الدينِ بنُ تيميةَ يعظهُ ويكلمهُ، ثم ذهبتْ جماعةٌ من أعيانِ دمشقَ إلى بولايَ، وحينَ خرجوا من عندهِ أوعزَ إلى حرسِهِ أنْ ينتزعوا ما عليهم من الثيابِ والعمائمِ.

أما أرجواشُ حاكمُ القلعةِ فإنه كانَ يغيرُ أحياناً على مَنْ بقيَ من التتارِ في دمشقَ ولكنهُ أبى أن يصالحَ قبجق حاكمَ دمشقَ من قبلِ التتارِ.

وظل قبجقُ يدعو لسلطانِ التتارِ محمودِ غازان.

وفي ٢٣ رجب من عام ٦٩٩هـ نوديَ بعدَ صلاةِ الجمعةِ بأنَّ العساكرَ المصريةَ قادمةٌ إلى الشامِ.

وفي ٤ رجب رحلَ بولايُ وجماعتهُ من التتارِ وتخلصتْ دمشقُ من شرورهمْ وجرائمهمْ.

وأرسلَ قبجق إلى رجالِ الدولةِ في مصر نادماً عما صدرَ عنهُ من لحاقهِ بالتتارِ ثم زحفِهِ معهمْ على دمشقَ وتعاونِه مع قازانَ، فجاءهُ الجوابُ بالصفحِ عنهُ، فخرجَ في وفدٍ من دمشقَ لملاقاتِ الجيش المصريِّ وفي العاشرِ من شعبانَ عادَ الجيشُ المصريُّ مع عددٍ كبيرٍ من رجالِ الجيشِ الشاميِّ ودخلوا دمشقَ في احتفالٍ عظيمٍ.

السلطانُ التتاري قازان
يعودُ ثانيةً إلى الشامِ

بعدَ خروجِ التتارِ من الشامِ عَمَّتِ الفرحةُ وتخلصَ من بغيِ التتارِ وظلمِهمْ وسفكِهمْ للدماءِ واغتصابهم الأموالَ وهتكِهمْ الأعراضَ، غيرَ أنَّ الحكامَ الجددَ لم يحسنوا الإدارةَ ففرضوا الضرائبَ الباهظةَ، وعجزَ الناسُ عن تسديدِ ما فُرضَ من الضرائبِ، وتخلفَ السلطانُ الملكُ الناصرُ ملكُ مصرَ والشامِ عن إرسالِ جيشٍ يحفظُ الأمنَ في سوريةَ و يساعدُ على دفعِ العدوِّ التتاري فيما إذا فكّرَ في

العودةِ، وانتشرتْ إشاعاتٌ عن عودةِ التتارِ، وحاولَ العالِمُ جاهداً أن يبثَّ الشجاعةَ في نفوسِ الناسِ غيرَ أنَّ الاضطرابَ ظلَّ يشتدُّ وحينئذٍ سافرَ تقيُّ الدينِ ابنُ تيميةَ إلى مصرَ، وأقنعَ السلطانَ. بأن يرسلَ جيشاً إلى الشامِ ففعلَ، وقويتْ عزائمُ الناسِ في دمشقَ بالجيشِ المصريِّ.

واجتازَ قازانُ ملكُ التتارِ حدودَ العراقِ ودخلَ الشامَ ووصلَ إلى حماةَ وشيزرَ، ومالَ جنودُهُ إلى النهبِ والسلبِ والسبيِ، وصادروا أموالاً كثيرةً وعدداً كبيراً من المواشي، وسارَ قاصداً دمشقَ.

وأرسلَ قازانُ وفداً وزودهُ برسالةٍ إلى السلطانِ الناصرِ وقد افتتحَ الرسالةَ بقولِهِ:

«بسم اللهِ الرحمنِ الرحيمِ

بقوةِ اللهِ وميامينِ الملّةِ المحمديةِ، فرمانُ السلطانِ محمودِ قازان.

لِيَعْلَمِ السلطان المعظمُ الملكُ الناصرُ، أنه في العامِ الماضي بعضُ عساكرِكُمْ المفسدةِ دخلوا أطرافَ بلادِنا وأفسدوا فيها، لعنادِ اللهِ وعنادِنا، كماردِينَ ونواحيها، وجاهروا اللهَ بالمعاصي فيمنْ ظفروا به من أهلِها، وأقدَموا على أمورٍ بذيئةٍ وارتكبوا آثاماً شنيعةً»
إلى أن يقول:

«فليُمعنِ السلطانُ لرعيتهِ النظرَ في أمرِهِ فقد قالَ صلى الله عليه وسلمَ (من ولاّهُ اللهُ أمراً من أمورِ هذه الأمةِ، واحتجبَ دونَ حاجتِهمْ وخُلّتِهِمْ وفقرِهِمْ، احتجبَ اللهُ دونَ حاجتهِ وخُلّتهِ وفقرِهِ) وقد أعذرَ من أنذرَ، وأنصفَ من حَذّر، والسلامُ على من اتبعَ الهدى. كُتِبَ في العشرِ الأوسط من شهرِ رمضانَ بجبالِ الأكرادِ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ والصلاةُ والسلامُ على سيدِنا محمدٍ وآلهِ الطاهرينَ.

وقد ردَّ عليهِ السلطانُ محمدُ بنُ قلاوونَ جواباً على كتابِهِ:

بسم اللهِ الرحمنِ الرحيمِ

بقوةِ اللهِ وميامينِ الملةِ المحمديةِ.

أما بعدَ حمدِ اللهِ الذي جعلنا من السابقينَ الأولينَ، الهادينَ المهتدينَ التابعينَ لسنةِ سيدِ المرسلينَ بإحسانٍ إلى يوم الدينِ، والصلاةُ على سيدِنا محمدٍ، والسلامُ على آلِهِ وصحبِهِ الذينَ فضّلَ اللهُ من سبقَ منهم إلى الإيمانِ في كتابِهِ المكتوبِ فقالَ سبحانَهُ وتعالى، «والسابقونَ أولئكَ المقربونَ»

إلى أن يقول «إذا جنحَ الملكُ للسلمِ جنحنا لها، والمشاهدُ لتصافينا يتلو قولَهُ تعالى (واذكروا نعمةَ اللهِ عليكمْ إذ كنتمْ أعداءً فألّفَ بينَ قلوبِكمْ فأصبحتمْ بنعمتِهِ إخوانا) وينتظمُ إنْ شاءَ اللهُ شملُ الصالحِ

أحسنَ انتظامٍ ويحصلُ التمسكُ من الموادعةِ والمصافاةِ بعروةٍ لا انفصالَ لها ولا انفصام. وتَسْتَقِرُّ قواعدُ الصلحِ على ما يرضي الله تعالى ورسولَهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ»

معركة مرج الصُفَّر

لم يكنِ الملكُ غازانَ ملكُ التتارِ يريدُ السلمَ في الحقيقةِ إذْ ما كادَ يستلمُ رسالةَ سلطانِ مصرَ حتى أمرَ جنودَهُ بالزحفِ فوصلَ إلى الرحبةِ (وكانتْ مدينةً عامرةً بقربِ الميادينِ) فدخلَ واليها الأميرُ علمُ الدينِ سَنجر الغتميِّ في طاعةِ ثم أرسلَ قائدَهُ قُطلوُشاه وكانَ ذلكَ عامَ ٧٠٢هـ، كما أرسلَ رسالةً إلى نائبِ دمشقَ جمالِ الدينِ آقوشَ الأفرمِ يقولُ فيها:

بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ

...........وحيثُ كانَ أهلُ مصرَ والشامِ يحبونَ و يودونَ قوةَ الإسلامِ، كان الواجبُ عليهمْ إظهارَ السرورِ، وابداءَ الحبورِ بإسلامِ ذراري جنكيز خانَ وعساكرِهِمْ، التي لا غاية لأواخرهمْ...

وقالَ:

وإن لاحَ لهم الاحترازُ فليستدركوا فارطَهُمْ، وليرحموا أنفسَهمْ. وأزواجَهمْ وأولادَهمْ وأموالَهمْ، وليبادروا إلى ما هو السببُ للخلاصِ، و يدخلوا في طاعتِنا عن صدقٍ وإخلاصٍ.... إلى آخرِ الرسالة.

وفي ١٨ رجب عامَ ٧٠٢هـ أرسلتْ مصرُ فرقةً عسكريةً لتقويتها، وأقبلَ الناسُ إلى دمشقَ من حمصَ وحلبَ وحماةَ واستعدَّ الناسُ للخروجِ من دمشقَ فنوديَ مَنْ خرجَ مِن دمشقَ حلَّ دمُهُ ومالُهُ.

وأغارَ التتارُ على القريتينِ فأسروا أهلَها مع أولادِهمْ وحريمِهمْ، فأقبلتْ فرقةٌ من حماةَ والتقَوْا بالتتارِ وهزموهُمْ واستنقذوا الأسرى، وعددهُمْ ستةُ آلافِ أسيرٍ.

وأسرعَ قُطلُوشاه فدخلَ حماةَ ثم احتلَّ حمصَ وبعلبكَّ، وأخذَ تقيُّ الدينِ بن تيمية يشجعُ الشعبَ والجنودَ على الدفاعِ، وأخذَ الذينَ يريدونَ التخلصَ من قتالِ التتارِ يظهرونَ الورعَ والتقوى ويقولونَ: هلْ يجوزُ قتالُ التتارِ وهمْ يظهرونَ الإسلامَ وليسوا بغاةً على الإمامِ، فإنهمْ لم يكونوا في طاعتِهِ ثم خرجوا عنها حتى يصحَّ قتالُهُمْ، فاسمعْ إلى هذا المنطقِ الغريبِ العجيبِ، منطقِ الجبناءِ الذينَ يحجمونَ عن لقاءِ عدوِّهمْ.

كانَ ردُّ العالمِ الكبيرِ تقيِّ الدينَ بنِ تيميةَ على

الجبناءِ المتخاذلينَ شديداً إذ قالَ لهمْ: إذا رأيتموني مِنْ ذلكَ الجانبِ أي جانبِ التتارِ وعلى رأسي مصحفٌ فاقتلوني، إن هؤلاء التتارَ وإنْ كانوا مسلمينَ فإنهمْ من نوعِ الخوارجِ الذين خرجوا على عليّ ومعاويّة» ورأوا أنهمْ أحقُّ بالأمرِ منهما، هؤلاءِ التتارِ يزعمونَ أنّهمْ أحقُّ بإقامةِ الحقِّ من المسلمينَ، و يعيبونَ على المسلمينَ ما هم متلبسونَ به من المعاصي والظلمِ، وهمْ متلبسون بما هو أعظمُ من ذلكَ بأضعافٍ مضاعفةٍ، وأثرتْ كلماتُهُ في الناسِ وعادَ إلى جادةِ الصوابِ مَنْ كانَ في قلوبِهمْ مرضٌ.

وفي ٢٤ شعبانَ عامَ ٧٠٢ خرجَ الناسُ إلى خارجِ دمشقَ وتمركزوا في مرجِ راهطٍ (مرج عدرا).

وخرجَ العالمُ تقيُّ الدينِ بنُ تيميةَ من دمشقَ وحثَّ السلطانَ على الإسراعِ لنجدةِ عسكرِ الشامِ،

ووصلَ السلطانُ إلى دمشقَ في الوقتِ الذي أخذَ التتارُ يقتربونَ من دمشقَ.

المعركة

واستعدَّ الجيشُ المملوكيُّ للقتالِ وانتظمَ صفوفاً متراصةً ومع الجيشِ السلطانُ الناصرُ محمدُ بنُ قلاوونَ وبجانبِه الخليفةُ العباسيُّ في مصرَ، وفي الجيشِ قراءٌ يتلونَ القرآنَ ويحثونَ على الجهادِ. ونادى الخليفةُ على مسمعٍ من الجنودِ: «يا مجاهدونَ لا تنظروا إلى سلطانِكمْ، ولا تقاتلوا من أجلِهِ ولكنْ قاتلوا عن حريمِكُمْ» وحينَ طلبَ السلطانُ من العالِمِ الكبيرِ تقيِّ الدينِ بنِ تيميةَ أن يقفَ بجانبِهِ قالَ له الشيخُ: السنةُ أن يقفَ الرجلُ تحت رايةِ

قومِهِ ونحنُ من جيشِ الشامِ: فما أروعَ هذا الرجلَ التقيَّ النقيَّ الشجاعَ.

وأفتى ابنُ تيميةَ بالفطرِ إذ كانتْ المعركةُ في رمضانَ، وصارَ يأكلُ أمامَ الأمراءِ والجنودِ ليقتدوا به.

زحفَ التتارُ كالسيولِ في ٢ رمضانَ بعد الظهرِ عام /٧٠٢هـ/ وأقبلَ قائدُ التتارِ قُطلُو شاه على مقدمةِ التتارِ، واختلَّ العسكرُ المملوكيُّ وتوهَّمَ الناسُ أن التتارَ منتصرونَ وهنا حدثَ ما يخجلُ منه المقاتلُ الشريفُ إذ هَجمَ بعضُ الناسِ على الخزائنِ السلطانيةِ وكسروها ونهبوا ما فيها من الأموالِ.

وتوقفَ القتالُ ليلاً بعدَ أن حلّتِ البلبلةُ بالجيشِ المملوكيّ وحينَ صعدَ قُطْلُو شاه إلى مرتفعٍ قريبٍ منه فإذا بالسهلِ أمامهُ ممتلىءٌ بالجيوشِ المملوكيةِ وهمْ

معبؤون لخوضِ الحربِ وأعلامُهُمْ تخفقُ فوقَ رؤوسِهِمْ وأحضروا الأسرى بين يديْ قُطلُوشاه قـائـد التتارِ وكانَ بينَ الأسرى عزُّ الدينِ إيدْمِرْ فسألهُ قُطلُو شاه ولما علمَ منه أن السلطانَ الناصرِ نفسَهُ يقاتلُهمْ ومنهُ جيوشُ مصرَ والشامِ تغيرَ موقفُهُ، وفجاءةً قرعَتْ طبولُ الحربِ فارتدَ الأميرُ بولايُ التتاري منهزماً بفرقتهِ ولما علمَ القائدُ العامَّ قُطْلو شاه بما حصلَ دبَّ في قلبهِ الهلعُ، وأحاطتِ الجيوشُ العربيةُ الإسلاميةُ بالتتارِ.

ونشبَ القتالُ ضارياً دامياً وفي المساءِ عادَ قطْلوشاه بجيوشِهِ إلى التلِّ الذي كانَ يقيمُ عليه قبلَ المعركةِ وهربَ الأسرى العربُ وأخبروا السلطانَ بخطةٍ جديدةٍ قد أعدَّ التتارُ لها عدتَهُمْ.

وفي ٤ رمضان ٧٠٢هـ نزلَ التتارُ من التلالِ

فلمْ يعترضْ المسلمونَ سبيلَهمْ، فساروا إلى نهرٍ قريبٍ لشدةِ ما حلَّ بهمْ من العطشِ فانقضَّ عليهمُ المسلمونَ من كلِّ جانبٍ، حتى إذا حلَّ وقتُ العصرِ أدارَ التتارُ ظهورَهُمْ ولاذوا بأذيالِ الفرارِ ونصرَ اللهُ المسلمينَ على ألدِّ أعدائِهِمْ التتارِ.

وظلَّتِ الجيوشُ العربيةُ الإسلاميةُ تطاردُ التتارَ حتى أجْلوهم إلى القريتينِ فألقى التتارُ سلاحَهمْ واستسلموا بخيولِهِمْ وعتادِهِمْ.

أما قُطْلو شاه فقد عبرَ الفراتَ بجماعةٍ من قادتِهِ وجنودِهِ وحينَ وصلَ إلى تبريزَ وفيها مجتمعُ التتارِ وأخبرهُمْ قُطْلُو شاه بما تم عمَّ الحزنُ والأسى جميعَ التتارِ.

وعلمَ السلطانُ محمودُ قازان بالهزيمة فغضبَ غضباً شديداً واغتمَّ وحينَ مثلَ أمامَهُ قُطْلو شاه أمرَ

بقتلِهِ، وتشفعَ به الأمراءُ وأعيانُ الدولةِ التتاريةِ، فعفا عنهُ غيرَ أنَّهُ أهانَهُ إهانةً عظمى وأمرَ بضربِ بولايَ وأهانَهُ أيضاً وفي السنه ذاتِها ماتَ قازان غَمَّاً وكمداً.

وسارَ السلطانُ الناصرُ محمدُ بنُ قلاوون من مكانِ المعركةِ إلى الكسوةِ القريبة من دمشقَ وقد خرجَ أهلُ دمشقَ لملاقاتِهِ وتهنئتِهِ، وسارَ السلطانُ يحيطُ بهِ الأمراءُ والقادةُ والشعبُ يهزجونَ و يشكرونَ اللهَ على النصر العظيمِ و يدعونَ للسلطانِ الناصرِ محمدِ بنِ قلاوونَ ولقادتِهِ وجنودِهِ و يترحمونَ على الشهداءِ واستقرَّ السلطانُ في القصرِ الأبلقِ في /المرجة/ ثم أقامَ في القلعةِ.

ونظَّمَ السلطانُ أعمالَ دمشقَ وعاقبَ أولئكَ القتلةَ واللصوصَ الذين عاثوا فساداً خلالَ المعاركِ

ضدَّ التتارِ، وفي يوم الثلاثاء ٣ شوال ٧٠٢ هـ قَفَلَ السلطانُ معَ جيوشِهِ المملوكيةِ عائداً إلى القاهرةِ.

خاتمة

كان اجتياح التتار لبلادنا كارثة عظمىٰ ومصيبة كبرى لم يحدث مثلها في التاريخ بالنظر إلى شناعتها وضحاياها والمجازر التي وقعت خلال هذا الاجتياح الإجرامي وقد وقع هذا البلاء على البلاد العربية والإسلامية وقوع الصواعق بل كان أدهى وأمر إذا لم يقع مثلها منذ عرفت الحياة على وجه الأرض وإذا كان قد حدث بعد ذلك ما يماثلها فهو اجتياح اليهود لفلسطين ولبنان وما ارتكبوه من المذابح في صبرا وشاتيلا، ودير ياسين وقبية وغيرها.

إن الناس الذين قتلهم التتار يحصون بمئات الألوف ولولا بربرية الإسرائيليين وجرائمهم ونفوسهم المتعطشة للدماء لما كان للتتار مثيل ولا شبيه.

فالتتار لم يبقوا على أحد بل قتلوا النساء والرجال والأطفال. وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة في بطون أمهاتها فإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم.

لقد استطار شرر هذا العدوان وعمَّ ضرره وأقبل كالظلمات فلم يكن منه مفَرّ، لقد انطلقوا من التخوم القريبة من الصين فدمروا تركستان واحتلوها واجتاحوا سمرقند وبخارى ثم احتلوا خراسان وامعنوا فيها تخريباً وقتلاً ونهباً ثم تجاوزوها إلى الري وهمذان ثم إلى حدود العراق. مارين بأذربيجان. فلم ينج منها إلا من كان غائباً عنها واجتاحوا بلاد الترك، وهي ليست تركيا اليوم فقتلوا كل من وقف في طريقهم وهرب كثيرون هلعاً من بربرية التتار، هربوا إلى رءوس الجبال أو فارقوا

بلادهم. واستولى التتار على البلاد الممتدة شرقي العراق كلها — كما استولوا على بعض البلاد الهندية، حتى إن الأسكندر المقدوني ذلك الطاغية اليوناني الذي اجتاح كذلك بلاد الشرق لم يكن أكثر من التتار بربرية وإهراقاً للدماء، ولا أقول هذا تفضيلاً للإسكندر المقدوني فهو ولا شك طاغية ودموي و يستحق لعنة كل شعوب العالم. ولكن الضحايا الأبرياء الذي أطاح بهم التتار لم يكن يحصى عددهم فقد امتلأت البطاح بالقتلى وأقيمت أهرامات من الرءوس المفصولة عن أجسادها ففي حلب وحدها أقيم هرمان على طرفي مدخل قلعتها من رءوس الضحايا.

لقد كانت البلاد التي اجتاحها التتار أجمل بلاد الدنيا المعروفة آنذاك عمارة وسكاناً وأقوم أهل

المعمورة أخلاقاً وسيرة ففي فترة عام واحد لم يبت أحد من سكان هذه البلاد إلا وهو يرتعد خوفاً وهلعاً فهو يتوقع وصول التتار إليه في أية لحظة.

لقد ابتلي العرب والمسلمون ببلاء لم تبتلَ به أمة من الأمم يومذاك وفي الوقت نفسه كان الزحف العدواني الغربي ينزل بالعرب والمسلمين ضربات ماحقة باسم الدين وباسم المسيح، والمسيح منهم براء.

وعندما زحف التتار على بلادنا لم يقف أمامهم في أول الأمر من يعيدهم لأنَ الناس بطروا وأفسدهم البطر والترف فقعدوا عن القتال جبناً وخوفاً من الموت ومفارقة ما هم فيه من ملذات شائنة ومولعات فخرية. وكان الملك خوارزشاه محمد قد استولى على بلاد كثيرة من بلاد المسلمين والعرب

فلما انهزم أمام التتار لم يبق في البلاد من يصدهم عنها من الحكام.

والشر يبدأ صغيراً ثم يعظم فلقد كان التتار منصرفين إلى شؤونهم لا ينوون العدوان على أحد فلما أرسل جنكيزخان ملكهم جماعات له ليشتروا بعض الكسوة والبضائع من المناطق التي كانت تخضع لخوارزمشاه محمد طمع نائبه في الأموال التي كانوا يحملونها فاستشار الملك خوارزمشاه في أمرهم فبعث إليه خوارزمشاه يأمره بقتلهم وأخذ ما معهم من الأموال وإرسالها إليه فقتلهم وأرسل الأموال إلى خوارزمشاه وكانت كميات لا يحصى عدّها وقد تكون هذه الحادثة من جملة الأسباب التي دفعت التتار إلى اجتياح البلاد الإسلامية والعربية.

كان التتار في زحفهم يتلفون العمران و يدمرون

المدن ولا يبقون على شيء ولا يعرفون هزيمة فهم كالإعصار أو كالطاعون لا يقف أمامهم شيء. و يصنعون أسلحتهم بأيديهم إذ يستصحبون العمال وصانعي السيوف من قومهم فتقام الورش خلال زحفهم وتصنع السيوف والعدد و يأكلون لحوم جميع الحيوانات التي تقع في أيديهم من خيل و بغال وخنازير حتى الكلاب لا تنجو من أشداقهم.

ولقد ندم خوارزمشاه على فعلته ولكن ماذا يفيد الندم ولم يلبث أن جاءه من يحمل له رسالة من جنكيزخان ملك التتار يقول له فيها أتقتلون أصحابي وتأخذون أموالهم، استعدوا للحرب فإني واصل إليكم بجمع لا قبل لكم به، فلم يكن من خوارزمشاه إلا أن قتل رسول جنكيزخان وهذا خطأ رهيب ومعيب إذ ما هو ذنب الرسول هذا ولم يكتف

بقتل رسول جنكيزخان بل أمر بحلق لحىٰ الجماعة الذين كانوا معه وأعادهم إلى جنكيزخان ليخبروه بما فعل بالرسول وليقولوا له إن خوارزمشاه يقول لك (أنا سائر إليك ولو أنك في آخر الدنيا حتى أنتقم! وأفعل بك كما فعلت مع أصحابك) فهل بعد هذا الغباء يوجد غباء، إنه أسلوب في السياسة أرعن يدل على ضعف العقل، والحمق، والاستهتار وتخلف الإدراك.

ودارت الحروب بين التتار الوثنيين الذين كانوا يعبدون الشمس، وبين المسلمين واحتلَّ التتار بخارىٰ كما أسلفنا، وجعلوا الرجال عبيداً بعد أن قتلوا معظمهم، واقتسموا النساء وقتلوا من لم يصلح للسبي والاستخدام وهتكوا أعراض العذارى حتى غدت بخارىٰ خاوية على عروشها. وكانوا إذا

حاصروا مدينة أرسلوا لأهلها أنهم لا يريدون بهم شراً وإنما يريدون الأسلحة والعتاد ولن يمسوهم بسوء فإذا دفعوا إلى التتار ما لديهم من أسلحة وعتاد اعملوا فيهم السيف دون رحمة وأفنوهم.

ولعل التتار برابرة الأمس لا يختلفون عن تتار اليوم وهم البرابرة الاسرائيليون الذين أوغلوا في بلادنا احتلالاً فشردوا شعبنا ودمروا ديارنا وهتكوا الأعراض وأراقوا الدماء تماماً كما فعل تتار الأمس.

والعالم العربي والإسلامي يومئذ متمزق يضرب بعضه وجوه بعض والصراع بين حكام الأقاليم قائم على قدم وساق دون ما رحمة ولا شفقة ولا تفكير.

والإجتياح التتاري كان لبلادنا العربية والإسلامية كافة إذ كان التتار يهاجمون أصحاب

البلاد بلا هوادة و بلا كلل وأهل البلاد من عرب ومسلمين يذبحون دون مقاومة تذكر. إلا في بعض القلاع أو المدن ولكن أغلب أبناء البلاد كانوا منغمسين في حياة البذخ والترف والبطر، فحين يسمعون بقرب مجيء التتار يتخاذلون و ينفرقون فيقتلون و يؤسرون وتهتك أعراض نسائهم بلا رحمة وهم لو قاتلوا لما قتل منهم تلك الآلاف المؤلفة.

يقول ابن الأثير المؤرخ العربي الكبير بالحرف الواحد: لقد انهزموا أقبح هزيمة وركبهم السيف من كل جانب فقتل منهم ما لا يحصى كثرة، ونهبوا ـــ أي التتار ـــ وجرى لهؤلاء التتار ما لم يسمع بمثله من قديم الزمان وحديثه، طائفة تخرج من حدود الصين، لا تنقضي عليهم سنة حتى يصل بعضهم إلى بلاد أرمينية من هذه الناحية (وكانت

أرمينية في ظل الحكم العربي) ويجاوزون العراق من ناحية همذان، وتالله (والقول لابن الأثير) لا أشك أنَّ من يجيء بعدنا إذا بعد العهد و يرى هذه الحادثة مسطورة ينكرها و يستبعدها والحق بيده، فمتى استبعد ذلك، فلينظر أنا سطرنا نحن وكل من جمع التاريخ في أزماننا هذه سطرنا الحوادث التي استوى في معرفتها العالم والجاهل لشهرتها يسَّر الله للمسلمين والإسلام من يحفظهم ويحوطهم فلقد دفعوا من العدوّ إلى عظيم، وفي المسلمين من لا تتعدى همته بطنه وفرجه (أي شهوته الجنسية).

و بناء على مبدأ (التاريخ يعيد نفسه) وقد يختلف الأسلوب ولكن المضمون واحد، فاليوم يجتاح البلاد العربية والإسلامية عدو بربري دموي قتال لا يقل بربرية عن التتار فإذا أمعنّا النظر نرى

الكثيرين من العرب والمسلمين لا تتعدي همتهم بطونهم وفروجهم، وما أشبه الليلة بالبارحة.

دروس التاريخ

إنَّ التمعن في التاريخ مفيد وهام، لأننا نستفيد من دروسه وعبره لكي نحسن الدفاع عن بلادنا وأمتنا وأعراضنا وأبنائنا ونحارب بضراوة مهما كان الصراع دامياً.

وكل أمة لا تستفيد مما مرَّ بها من أحداث وكوارث وحروب وعدوان تكون أمة متعفنة لا تستحق احترام الشعوب، وليس معنى هذا أن تغوص في الماضي وننسى ما نحن فيه من بلاء داهم.

يجب على الشعوب العربية والإسلامية أن يواجهوا الزحف الاستعماري والصهيوني بالعقل

المستنير وبالشجاعة القصوى، وبالتضحيات مهما غلت وبشعور بالمسؤولية يحول دون البطر وعدم المبالاة.

ونعود إلى الحديث عن الزحف التتاري فقد اشتدت الهجمات البربرية وراح العدو يجوس البلاد، يأخذ ما أراد ويقتل من يشاء، فكانوا لا يمرون بمدينة إلاّ خربوها. وكل ما مروا به نهبوه، ويحرقون ما لا يصلح ولا يرضيهم.

وكانوا يقدمون الأسرى المسلمين والعرب أمامهم أثناء المعركة، وكانوا هم يقاتلون وراء هؤلاء الأسرى، فيكون القتل والإبادة للمسلمين الأسرى، يقتلهم إخوتهم في الدين أو في العروبة أو في الدين والعروبة معاً، ويكون التتار بنجوة من الموت، وهكذا يهاجمون المدن واحدة بعد الأخرى.

وكانوا يأمرون الأسرى أن ينادوا في الدروب وفي المدنِ أن التتار قد رحلوا، فإذا انتشر النداء خرج من اختفى فيؤخذ و يقتل، وخلال دخولهم إحدى المدن تقدم رجل من التتار فدخل درباً فيه مئة رجل فما زال يقتلهم واحداً واحداً حتى أفناهم، ولم يمد أحدٌ يده إليه بسوء فهل استطعت أن تتصور جيداً لماذا أمعن الأوغاد قتلاً وهتكاً فيمن كان بصبرا وشاتيلا في لبنان لو وجد الأوغاد الإسرائيليون من يقتلهم لفروا هاربين كالجرذان ولكن الحماة ذهبوا والباقون لم يدفعوا عن أنفسهم قليلاً ولا كثيراً، فنعوذ بالله من الخذلان.

وعندما وصل التتار إلى (إربل) في العراق جلا أهل الموصل وبينها وبين أربل مسافة بعيدة نقول جلا أهل الموصل عن مدينتهم وتركوها للمغيرين

خوفاً من السيف، فما أشبه الليلة بالبارحة. لقد تركوا مدنيتهم خالية إلاّ من العجزة والمسنين والذين ليس لديهم ما يعينهم على النزوح تركوهم للتتار الذين لا يعرفون الرحمة.

ولكي أوقف القارىء على الحالة المزرية التي وصل إليها المجتمع مجتمعنا أبان المحنة الرهيبة محنة الاجتياح التتري الدامي والتي تعطي صورة صادقة عن الأمة حين تكون جديرة بما يحل بها من المذلة والقهر، ففي هذه الفترة بالذات فترة الزحف التتاري على بلادنا توفي في مكة أميرها قتادة بنُ إدريس الحسيني وكان حاكماً حازماً ولكنه على الرغم من كل نجاحاته فقد ارتكب بعض الإساءات ولما مات تولى الإمارة بعده ابنه الحسن، وكان له ابن آخر أسمه راجح كان على خلاف مع أخيه الحسن الأمير الجديد.

وفي موسم الحج من ذلك العام أقبل راجح بن قتادة وأخو الحسن فدخل مكة مع بعض الحجاج من العراق بعد أن أقنعهم أن يناصروه على أخيه، دخلوا مكة مقاتلين فظفر بهم جنود الحسن، وسامحهم الأخير على ألاّ يعودوا إلى مثل هذا العمل ثم سيَّرهم إلى بلادهم، واعتذر للخليفة.

وتبين بعد سنين قليلة أن الحسن بن قتادة هذا هو الذي قتل أباه إذ كان مريضاً، وكان قتادة قد أرسل أخاه ومعه ابنه الحسن لإخضاع بعض العصاة، فأراد العم أن يختص بالإمارة فقال لوجوه الجند إن أخاه مريض وهو أحق من ابن أخيه الحسن بالإمارة، وحين سمع الحسن بما ينو يه عمه من محاولته اغتصاب الأمارة قضى عليه، ثم قفل راجعاً إلى مكة فلما سمع والده بما تم من الأمر وَبّخَ

ولده الحسن وأقصاه عنه.

ولم يطل بقتادة الأمر إذ توفي وحامت حول وفاته شبهات لم يكن ابنه الحسن بعيداً عنها، واستولى الحسن على الإمارة كما قدمنا، فكان أول عمل قام به هو أنه استدعى إليه أخاه راجحاً مدعياً أنه يريد إعادة المياه إلى مجاريها وحين تمكن منه قتله دون رحمة.

هكذا كانت تسير أمور البلاد والأمة في ذات الوقت الذي كان التتار يهاجمون بلادنا، و يقيمون فيها المجازر، ويهرقون الدماء أنهاراً.

ومما زاد الطين بلة زحف الصليبيين المستعمرين على بلادنا في نفس الفترة التي كان التتار يكتسحونها، فكانت الأهوال تحترق بجميع الأقطار

العربية والإسلامية والبلاء ينصب عليها صباً إلى أن قَيَّضَ الله لها الملك المظفر قطز، فنشبت معركة عين جالوت وانحسر ظل التتار عن بلادنا إلى غير رجعة.

وكما أطّلعت أيها القارىء فإن ملك التتار قازان كان قد شرح الله صدره للإسلام. فأسلم، وأسلم معه عدد عظيم جداً من التتار.

والذي حدث هو أن الزحف التتاري لم يتوقف على الرغم من دخول قازان ملك التتار في الإسلام فقد ظل التتار يزحفون و يقتلون و يدمرون ويهتكون، واسترسلوا في أعمالهم الدموية.

وضجَّ الناس في دمشق فمنهم من قال بوجوب محاربة قازان دون توقف وفريق آخر قالوا لا يجوز لنا أن نحارب قازان فهو مسلم، ورموا أسلحتهم، وهذا

الفِريق المتخاذل هو في الأصل يخشى الحرب ويجبن عن خوض غمارها فلما أسلم قازان ملك التتار وقائدهم الأكبر مع جماعة من جنوده وقواده، وجد الفريق المتخاذل فرصته السانحة ليتخلص من الحرب فطرحوا سلاحهم ورفضوا الذهاب إلى ساحة المعركة.

وكان في دمشق عالم كبير هو الإمام ابن تيمية وهو فارس مقاتل، ورجل دين لا مثيل له، لما سمع الناس يخذل بعضهم بعضاً و يدعو بعضهم إلى الإستسلام لقازان، وقف خطيباً في الجامع الأموي في دمشق في صلاة الجمعة وألقى خطبة بليغة في وجوب محاربة قازان، إلى أن قال لهم؛ لو رأيتموني أحمل مصحفاً بين يدي، وأنا في صف قازان فقاتلوني، وحثهم على مقاتلة عدوهم قازان وجنوده.

وفي كل زمان ومكان يوجد في صفوف الأمة أبطال شجعان يأبون المذلة و يبذلون دماءهم دفاعاً عن وطنهم وأمتهم، كما ترى إلى جانبهم أفراداً قد أعماهم الجبن وشلَّ أعصابهم، إن أمثال هؤلاء الجبناء لا خير فيهم للوطن ولا للأمة، فهم كالوباء أو أشد خطراً.

التاريخ يعيد نفسه

والتاريخ يعيد نفسه فلو أن العرب قاتلوا اليهود وطردوهم من الوطن العربي ومن فلسطين خاصة حين كانوا أقلية ضئيلة لا تستطيع أن تصنع شيئاً، لأفلحوا ولكنَّ بعضهم ركبه الطمع و بعضهم اكتسحهم الغباء وآخرون جبنوا عن مقاومة المنظمات الصهيونية. وركن الجميع إلى الدعة والراحة إلاّ في فترات محدودة كان العرب

الفلسطينيون يقاتلون اليهود بضراوة ولكنهم لم يستطيعوا أن يحصلوا على نتيجة حاسمة ، وحين قويت شوكة اليهود بمن وفد إلى فلسطين من المهاجرين راحوا ينكلون بالعرب تنكيلاً وحشياً .

وانكلترا هي أصل الشر، فهي التي أصدرت وعد بلفور الذي بموجبه أصبحت فلسطين وطناً قومياً لليهود الصهاينة، وانكلترا هي التي شجعت الهجرة اليهودية إلى فلسطين هي أصل نكبتنا ومصدر شقائنا، وإن دماء الشهداء والضحايا، وما يعانيه اليتامىٰ والأيامىٰ من عذاب التشريد مصدره كله انكلترا ثم تبنت الولايات المتحدة الامريكية إسرائيل سعياً وراء مصالحها المادية .

ولا بدّ من أن تذكر أنه في إحدى الحملات الصليبية على بلادَنا تلك التي قادها ملوك أورو با

وحكامها أقول تحالف الصليبيون مع التتار الوثنيين ليجعلوا المنطقة العربية الإسلامية بين طرفي الكماشة من الشرق والغرب ومن ثم اندفع المغول لأجل اكتساح العالم العربي الإسلامي فدمروا بغداد وقتلوا خليفتها، خليفة المسلمين، ثم زحفوا إلى دمشق فاحتلوها وفتكوا بأهلها فتكاً ذريعاً، حتى اجتمعت كلمة العرب المسلمين وهزموهم في عين جالوت، بالقرب من مدينة الناصرة الفلسطينية المحتلة اليوم من قبل الصهاينة، وكانت البلاد، بلادنا ترزح تحت عوامل التفكك والخلافات الإقليمية والصراعات الذاتية.

وقبل هذه الفترة في عام ١٠٨٥ طرد العرب المسلمون من بعض إسبانيا إذ سقطت مدينة طليطلة، وخرج منها العرب مشردين بعد أن أقيمت

المجازر والمحارق لهم وقتل الكثيرون منهم ذبحاً أو حرقاً أو دفنوا وهم أحياء.

وفي عام ١٠٨٧ احتل أهل جنوا الإيطالية مدينة المهدية في تونس. كما طُرِدَ العرب من جزيرةِ صقلية في عام ١٠٩٠.

وحين دارت معركة عين جالوت في أيلول عام ١٢٦٠ وأنتهى بهذه المعركة خطر المغول بأكمله سار الملك المظفر قُطُز مع قواده وجنوده عائداً إلى مصر مقر حكمه. وفي الطريق تحرك الطمع الرهيب وشهوة الحكم والسلطان في نفس أحد القواد الملك المظفر وهو الظاهر بيبرس البند قداري فتآمر مع بعض القادة على الملك المظفر، وكان هذا الأخير في أوج فرحته واغتباطه إذا استطاع أن يدمر التتار و ينقذ البلاد من شرورهم.

وبينما هم في الطريق وقد غمرهم السعادة شاهد الملك المظفر أرنباً فلحق به يريد اصطياده وحين ظفر به توقف قليلاً فلحق به الظاهر بيبرس وبعض القادة، وتقدم الظاهر من الملك المظفر وطلب منه الموافقة على رغبة معينة كان قد طلبها من قبل، فوافق الملك المظفر على ما طلبه بيبرس، فانحنى الأخير مقبلاً يد الملك، واستل خنجراً من وسطه طعن به الملك المظفر فقضى عليه، وهو في أوج انتصاره.

مطامع ذاتية وأغراض خاصة وأنانية لا حدَّ لها، يستبيح فيها المرء كل ما لا يباح فيقتل الملك لينعم هو بالملك والسلطان بعده، هذه الأنانية الفتاكة هي سبب أكثر ما حلَّ بنا من الكوارث والمصائب الأنانية التي مزقت الوطن العربي الإسلامي فقد

اعتدي في وقتنا الحاضر على لبنان تحت سمع العرب وبصرهم فلم يحرك العرب ساكناً سوى سورية والمقاتلين الفلسطينيين، وأما العرب الآخرون في جميع أقطارهم فكان دورهم دور المتنزه في ملعب للكرة.

لقد خدعنا الأنكليز ولعبوا بعقولنا وما زالوا يلعبون بها فمنذ الثورة العربية ضد الاتراك، تلك الثورة الرائعة ختمها البريطانيون باتفاقية سايكس ــ بيكو التي أقتسموا بموجبها العالم العربي بينهم سراً.

ووعد بلفور وزير خارجية بريطانيا بأمر من حكومته وعد اليهود بوطنٍ قومي في فلسطين، ولم ينس الجنرال غورو الفرنسي حين دخل دمشق على رأس قواته الاستعمارية أن يمضي إلى قبر صلاح

الدين الأيوبي ليقول أمامه كلمته المشهورة: (ها قد عدنا... ياصلاح الدين).

وهكذا لم نكد نتخلص من حروب الصليبيين حتى جاءنا التتار، الأولون احتلوا بلادنا بإسم الدين والدين لا يأمرهم بهذا، فالمسيحية دين سلام ومحبة، والآخرون جاءوا مدمرين مكتسحين ثم استؤنف الاحتلال الإستعماري بعد الحرب العالمية الأولى فاحتل بلادنا فرنسيون، وانكليز وايطاليون وآخرون من مختلف أمم الغرب.

وحين شعر الغرب بأن الحركة الاستعمارية سوف تتلاشى بنضال الشعوب المظلومة ووعيها جاءونا بالصهيونية تحتل فلسطين وتتوسع لتصبح كما قال أحد الوزراء الأمريكيين (حاملة طائرات غير

قابلة للغرق) لحساب الولايات المتحدة الأمَيركية وحلفائها.

ولو كان العرب على قدر كافٍ من التفاهم والتعاضد لما حدث ما حدث في البلاد العربية منذ قرون حتى الآن ولو تعلم العرب أن الخلاف فيما بينهم سينتهي بهم إلى أفدح الكوارث لما وصلوا إلى ما وصلوا إليه اليوم من قهر وانهيار فليتنبه العرب وليرموا بأنانيتهم جانباً وليستعدوا لدفع ما نزل بهم، وما سينزل بهم، لأن الغرب كله ضد العرب والمسلمين. فهو عدو العرب جاءهم معتدياً باسم الدين ثم جاءهم مستعمراً ثم جاءهم باليهود مستثمراً. وخلال ذلك جاء التتار فدمروا وهتكوا وقتَّلوا ولِمَ لا يفعلون ما فعلوا فما أحد أحسن من أحد.

فأين إذن الحقُّ وأين الأخلاق، وأين حقوق الإنسان التي ينادي بها الغرب في محافله ومجتمعاته، إن وثيقة حقوق الإنسان وَقّعَتْ عليها الدول كلها. وهي مُلْزِمة للضعيف من الدول والشعوب ولكنها لا تعدو أن تكون حبراً على ورق لدى الأقو ياء.

ترى هل كان ترومان إنساناً وهو الرئيس الأميركي الذي أمر بضرب المدينتين اليابانيتين هيروشيما. وناغازاكي، هل كان إنساناً أو يدرك حقوق الإنسان حين أفنى مئات الألوف من الناس الآمنين بضربتين إثنتين بما فيهم من أطفال ونساء وعاجزين.

هل كان ترومان إنساناً حين ساعد على خلق إسرائيل في الوطن العربي فخلق بذلك أعظم مشكلة من مشاكل العالم المعاصرة.

إنهم لصوص

إن نابليون القائد الفرنسي الجزار حين كان يستعد لاحتلال مصر، ليذهب منها إلى الهند التي كان يحكمها الإنكليز، قال لقواده (سنفاجئهم، لصوص يهاجمون لصوصاً أقلَّ منهم جرأة، و يفوزون بالجائزة) ولعل هذا المبدأ هو السائد حتى يومنا هذا، إنهم لصوص حقاً.

وهذه هي الحقيقة، حقيقة هؤلاء المستعمرين إنهم لصوص لصوص في جميع المراحل وتحت كل الأقنعة فالغرب الاستعماري لا يعترف بحقنا في الحياة الحرة الكريمة ولا يدعنا ننعم بالسلم والأمن والطمأنينة وهو يعدنا دولاً متخلفة وشعوباً لا تصلح إلا للاستثمار، فراح يتخذ من بلادنا مستعمرات و بلاداً محتلة، وظنَّ هذا الغرب الظالم أن انتصاره

نهائي، وأن تفوقه واستعلاءه، ومصادرته للحريات الشعوب وثرواتها وكنوزها سوف تستمر إلى الأبد، ولكنه أخطأ في التقدير والحدس والتخمين، فقد قهرت الشعوب مستعمريها. وطردت الغزاة من أراضيها مدة وطاردت اللصوص وأعادتهم إلى صوابهم.

ورغم كل ذلك فإن الغرب الظالم ظلَّ يحلم باللصوصية، فهو يعتقد بأن سيظل متفوقاً وإلى الأبد ولذلك فهو يعد الأساليب لإستغلال الشعوب بطرقٍ شيطانية، على الرغم من أنها لم تعد تخفى على أحد. أمام يقظة الشعوب، فالفيتيناميون سحقوا الولايات المتحدة وأنصارها وعملاءها على الرغم من أنهم أي الفيتيناميون أقل عدداً وعدة، ولكن روح التضحية كانت في أرفع المستويات عند الفيتيناميين، فقبلت

الولايات المتحدة الهزيمة على يد الفيتيناميين بعد أن دفعت ثمن حماقاتها، وكان الثمن باهظاً جداً من أرواح رعاياها، ومن عنفوانها وجبروتها وكرامتها.

لقد فقد الغرب الشجاعة ولهذا فلم يعد يخيف الشعوب الضعيفة ولكنه يحاول أن يرتكب حماقة أدهى وأمر من كل حماقاته.

إنه حين فقد شجاعته أخذ في التقرب إلى الصين يحاول دفعها لمحاربة الإتحاد السوفياتي ليضرب السوفييت بألف مليون من الصينيين يسلحهم الغرب ثم يقف هو متفرجاً حتى يسقط المعسكران السوفيتي والصيني فيتقدم الغرب حينئذ ليقطف الثمار اليانعة.

وأخيراً هل يتنبه الشرق كله بمن فيه من عرب ومسلمين إلى أساليب الغرب في استثمار الشعوب

واستغلالها وإلى أن فلسفة الغرب في الحياة هي أنه هو الذي خلق ليكون سعيداً وأن يكون كل شيء لدى الشعوب هو لمصلحته وأمنه وسلامته وزفاهيته وترفه هو ولا شيء للآخرين سوى الموت قتلاً وحرقاً و بكافة الوسائل التدميرية الأخرى.

يُسْقِطُ الاتحاد السوفياتي طائرة غربية معتدية ويموت ركابها فتقوم دنيا الغرب ولا تقعد، وقبل هذا الحادث بقليل يذبح الألوف من الأ برياء في صبرا وشاتيلا بلبنان، يذبحهم الإسرائيليون، وعملاء أمريكا، فلا تصدر عن الغرب كلمة واحدة ضد إسرائيل، وضد هؤلاء العملاء، وهكذا على العرب وعلى المسلمين في كل مكان أن ينتبهوا، فقد كفاهم ما أصابهم من اضطهاد وظلم وتقتيل وإفناء منذ قرون بعيدة حتى اليوم.

لن ينجى العرب والمسلمين مما نزل بهم من عدوان اليهود عليهم واحتلال فلسطين وما جاورها خضوعهم، وقعودهم عن قتال أعدائهم مجتمعين غير متفرقين لأن هؤلاء الصهاينة يقاتلوننا بسلاح الولايات المتحدة الأميركية ودعمها ومساعداتها القائلة، فلا ينجينا من الفناء والذل إلا أن نقاتل معاً متكاتفين صفاً واحداً. يمتد من سواحل المغرب على حدود الأطلسي إلى الخليج العربي، دفعنا الأمم الإسلامية كافة، فالخطر الذي يهددنا عظيم.

لقد اجتمع على العرب والمسلمين خطران عظيمان ذات يوم، الأفرنج والتتار، فماذا كانت النتيجة وكيف تم دحرُ هذين الخطرين؟

حين قعد المسلمون والعرب عن قتال أعدائهم غلبوا على أمرهم واجتاح الفرنج والتتار ديار العرب

والمسلمين، وكما ذكرت سابقاً، فإن التتار الذين كان يحكمهم الملك قازان أعلنوا إسلامهم مع ملكهم. وانتسبوا إلى الإسلام بعد أن كانوا وثنيين، وكان تحت حكمهم كثيرون من المسلمين، ومع ذلك فلقد استمر التتار يقاتلون العرب والمسلمين و يتحالفون مع بقايا الأفرنج على العرب والمسلمين. ويحترفون الغزو والتدمير ضد المجتمعات الإسلامية، وهم في غاراتهم التي شنوها على البلاد الإسلامية يقتلون مئات الألوف (تماماً كما يفعل اليهود اليوم) و يسبون النساء والأطفال والرجال، و يفسقون بالنساء الحرائر. و ينتهكون حرمة المقدسات. و ينهبون الأموال، و يدمرون معالم الحضارة.

إنهم يعتدون على العرب والمسلمين في سبيل السلب والنهب والعدوان والتسلط. وهم يعظمون

جنكيزخان إلى درجة العبادة.

وظل التتار يجردون الحملات على بلاد العرب والإسلام رغم أنهم أصبحوا مسلمين ويمارسون في أهلها القتل والسبي والنهب والفجور والدمار، فهم اعداء. واليهود ألد منهم عداوة اليوم فأولئك على الرغم من أنهم أعرضوا عن الإسلام وانتسبوا إليه حاربوا البلاد التي احتلوها وأخضعوا أهلها وأذاقوهم الذل والهوان، و نصروا اعداءهم عليهم ولا خلاص لنا اليوم إلا بقتال الصهاينة وصدهم عن بلادنا كما فعل أجدادنا بالتتار المعتدين الظالمين لأن الصهاينة غزاة محاربون معتدون أغاروا على ديارنا، وشردوا أهلنا وأهلكوا الحرث والنسل وهم اليوم يهددون البلاد العربية والإسلامية كلها بالسيطرة عليها واقتطاع ما بين النيل إلى الفرات ليجعلوه دولة لهم ثم يسيطرون منها

على العالم العربي والإسلامي كله بمساعدة دول الغرب الاستعماري.

دروس قاسية

فإذا كنا قد هعينا هذه الدروس جيداً، هذه الدروس القاسية التي مرت ببلادنا وأمتنا، والتي كلفتنا ملايين الضحايا وخربت بلادنا مرات ومات تحت الأنقاض مئات الألوف التي لا حصر لها.

حين قامت الحرب بين العرب وبين الصهاينة عام ١٩٤٨ كان اليهود قد أعدوا كل شيء لإعلان قيام دولتهم كانت لديهم المنظمات العسكرية والمدنية وهيكل الدولة، والتأييد العالمي. وقوة الضغط الأمريكي والغرب كله، ومصادر السلاح المفتوحة والدعاية الناجحة.

وانتصر يومئذٍ اليهود على الجيوش العربية مجتمعة، فصراعنا مع اليهود سيكون صراع أجيال ويخطىء من ييأس من انتصارنا ويخطىء أيضاً من يستسلم للقنوط و يركن إلى مهادنة اليهود، فيجب أن نعدّ المدفع والمصنع كما يجب أن نعد رجل القتال، ورجل الاقتصاد على السواء؛ ورجل العلم ورجل السياسة؛ والنصر في معركة عسكرية ليس أعظم من النصر في معركة سياسية، والفوز بحليف جيد ليس أقل من الفوز بموقع هام حصين، إن الصراع بين أمتنا و بين الصهاينة قد يطول وهو أعمق من أي صراع آخر مرت به الأمة العربية.

وأسوأ من كل ما مرَّ بنا هو أن يثور النزاع فيما بيننا نحن العرب حول أمور تافهة لا تصل إلى

مستوى الأحداث المصيرية التي تمر بنا وكذلك اهتمامنا بالقشور دون الجوهر.

وأمر آخر لا يقل أهمية عن كل أراضنا وعللنا ألا وهو الترف الزائد عن كل حد فالشعب العربي سيؤذيه الترف الذي جاءه بسبب غناه ووجود مادة البترول في البلاد العربية هذا الذهب الأسود الذي لا يقل أهمية عن كل الثروات الأخرى لدى الأمم.

وحين هاجمت إسرائيل لبنان وقامت بمذابح صبرا وشاتيلا صَمَتَ عدد كبير من الدول العربية وكأن شيئاً لم يكن أو كأن بعض العرب كانوا شامتين بما حلَّ بإخوانهم العزَّل من السلاح في لبنان.

ولن نيأس أبداً فإن الشعوب كلها قد مَرَّ بها

مثلُ ما مرَّ بنا إذ تغشت فيها المفاسد وكانت الرشوة على رأس هذه المفاسد، وحين ينضم الترف إلى الرشوة فإن الأمة التي تصاب بهاتين الآفتين ستشعر ببوادر الإنهيار وقد تصحو من سباتها فتتدارك أمرها وقد لا تصحو كما حدث في لبنان فتنهار البلاد، دون أن تجد من ينقذها من أنهيارها ومصيرها المظلم المحتوم.

لقد كانت حروب التتار واندفاعهم نحو بلادنا واستيلاؤهم على الكثير من أقطارنا بلاء عظيماً ما لبث أن تهاوى أمام نضال قومنا ووقوفهم صفاً واحداً أمام هذا الغزو الذي انحسر إلى غير رجعة.

وسوف يعيد التاريخ نفسه فتتحرر بلادنا العربية من العدوان الصهيوني الغاشم، فالأمهات العربيات ما زلن يلدن الأبطال وسوف تعم اليقظة في العرب

وتستيقظ ضمائر القاعدين عن النضال،
فالإمكانيات المتاحة للأمة العربية مادياً وبشرياً لا حدود لها، وستزول هذه الخصومات وتتلاشى الفوضى السياسية، فالأمة العربية قادرة على النمّو والتطلع والإبداع، وسوف يقف أعداؤنا ضدنا بعناد وشراسة ولكننا كما تخلص أجدادنا من الأفرنج والتتار وغيرهم فسوف نتخلص من التتار الجدد.

إن المواطن العربي في كثير من الأقطار العربية يتخذ موقفاً مائعاً من قضايا أمته في الوقت الحاضر على الأقل وهو يدرك أننا نعيش في عالم تحكمه شريعة الغاب ولكنه مع ذلك لا يصنع شيئاً هاماً، إنما يكتفي بالإطلاع على ما يحدث في فلسطين وما حولها ثم ينام طويلاً مطمئناً إلى أنه آمن في بلده لم تمتد إليه يد العدوان بعد.

لقد تمكن أعداؤنا ـــ في الوقت الحاضر ـــ أن يوقعوا بين العرب واستطاعوا أن يثيروا نزاعات محلية صرفت الملايين من العرب عن قضيتهم الكبرى ـــ قضية فلسطين وأوقعت بينهم العداوة والبغضاء وأشغلوهم بحروب محلية مع الإخوة أو الجيران دون أن تلحق هؤلاء الأعداء أية خسارة.

إن دول الغرب وصينعتهم إسرائيل يهمها أن ينشغل العرب بصراعاتهم الداخلية، ومشاكلهم الخاصة وأن يهلك بعضهم بعضاً بحيث يعجزون عن ملاقاة العدو الحقيقي اللئيم الذي يتحين أية فرصة سانحة لينقض على من يليه من العرب فيسلبهم أرضهم و يشردهم، وهكذا يظل متيقظاً للإنقضاض على الدوام محاولاً أن يظل العرب في حالة مدمرة من الإرهاق والتمزق والضياع بعيدين عن الاستقرار والإعمار، والتقدم.

إن كل يوم يمر يحمل إلينا الجديد من تكالب الغرب المستعمر علينا متخذاً الصهاينة رأس حربة له، وهو لن يكتفي بذلك فقد أخذ يتدخل بنفسه أكثر فأكثر في الخليج العربي، وفي البحر الأحمر، في مصر وفي السودان والصومال وعُمان ويتخذ فيها القواعد العسكرية فضلاً عن قاعدته إسرائيل، ولهذا فلا يجوز أن يظل المخلصون من العرب غافلين عما يُبَيَّت لهم ولبلادهم من الأذى وعليهم أن يدركوا جيداً أن التتار والأفرنج الجدد قد يكونون أسوأ ألف مرة من أولئك الذين استولوا على بلادنا فيما مضى من الزمن.

يجب علينا أن نفكر جيداً، وألاّ نعفي أنفسنا من المسؤولية وألاّ نلقي اللوم على غيرنا فالأيدي الأجنبية لن تكف عن التحرك لتعمل على تمزيقنا وهي ماهرة

جداً في إثارة الصراعات الداخلية التي تدمر البلاد وتجعل عاليها سافلها وتأكل الأخضر واليابس.

لا شك في أن التفاوت شديد بين الدول العربية في الفقر والثراء وإن هذه الدولة العربية تستطيع أن تقتني السلاح والعتاد، وتلك لا تستطيع ذلك، هذا صحيح ولكن التعاون بين الدول العربية كلها يستطيع أن يخفف من الأثر الذي تتركه هذه الفوارق في كيان الأمة العربية كلها وإن الحرب الشاملة ضد الأمة العربية لا تستهدف قطراً معيناً، بل تستهدف الأقطار العربية كلها، ولكن لكل دولة دورها في جدول العدوان، ومن الخطأ الكبير أن تعتقد أية دولة عربية أنها في نجوة من العدوان.

إن توالي النكسات العربية يؤذي النفوس ويبعث فيها الضجر والخوف والقنوط لأن العربي في

كل قطر عربي يشعر شعوراً ثابتاً أن لديه المال، والفهم، والعقيدة الوطنية، ومع ذلك فهو لا يحرز نصراً على أعدائه ولا يكاد ينجو من أذاهم.

إن الخلافات العربية يجب أن تزول، وهذا الأمر هو في يدنا نحن العرب إذ أن الأمة الواعية لا تستطيع الأيدي الأجنبية أن تمزق صفوفها مهما بذلت من أموال وجهود. ولكننا على الرغم من أننا نعي الكثير غير أننا لم نعمل شيئاً لإفشال خطط الأيدي الأجنبية. بل تركناها تعبث فساداً في كل أقطارنا دون أن نصنع شيئاً سوى الاحتجاج والشكوى إلى المؤسسات الدولية.

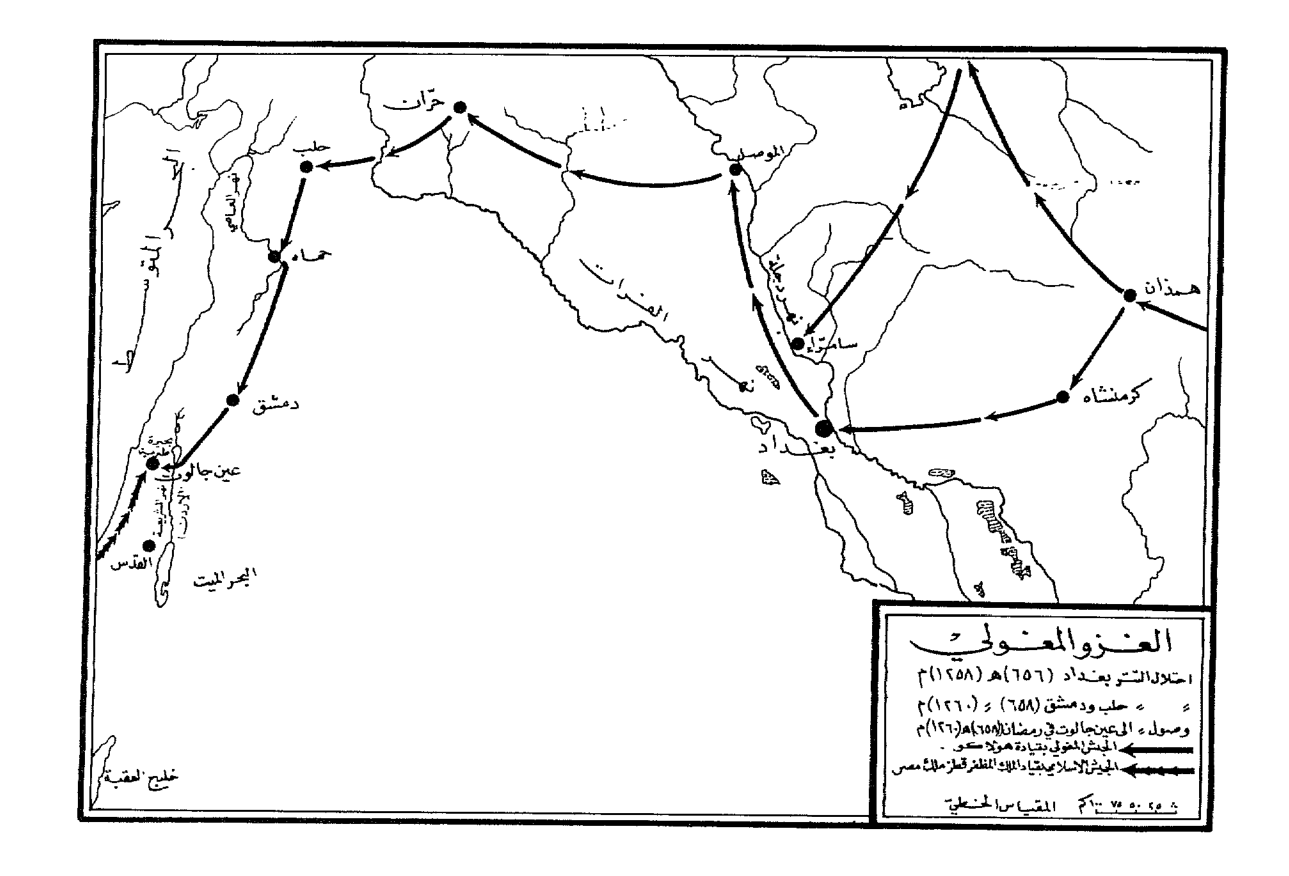
وأغرب من كل ما ذكرناه أن الأموال العربية والبترول العربي هما اللذان يحفظان لدول الغرب استمرار الحركة المالية والاقتصادية لأنهم يحتفظون

بمخزونهم من البترول و يستهلكون بترولنا وسوف ينضب هذا البترول بعد ثلاثين أو خمسين عاماً.

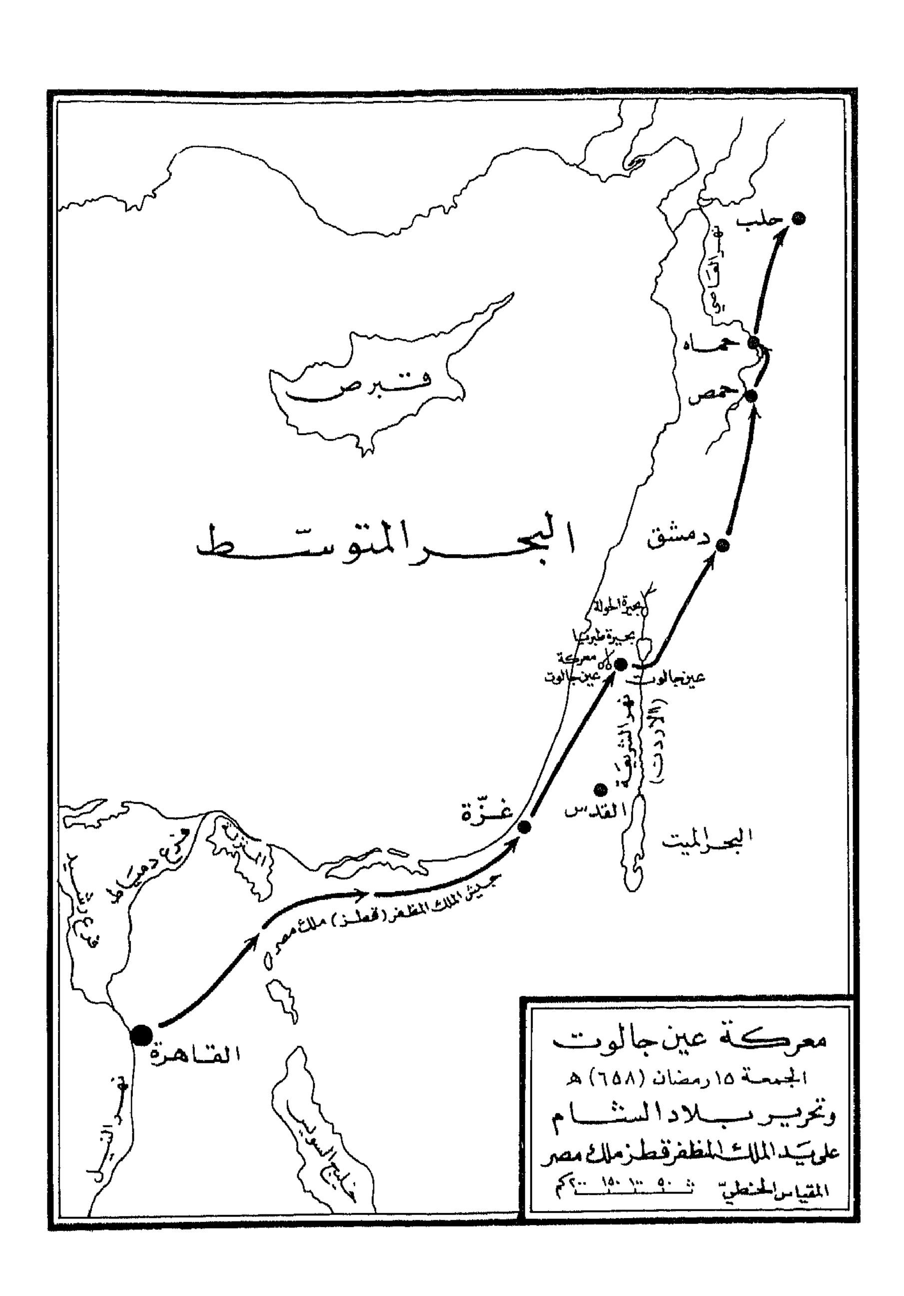
وأخيراً فإن العالم العربي هو اليوم بحاجة ماسة إلى وحدة الصف ووحدة القرار فيما يتعلق بالشؤون الدولية ولا يقولنَّ أحد لقد انتهى التتار، وفي عين جالوت شُتِتوا بالسيف والنار إلى غير رجعة.

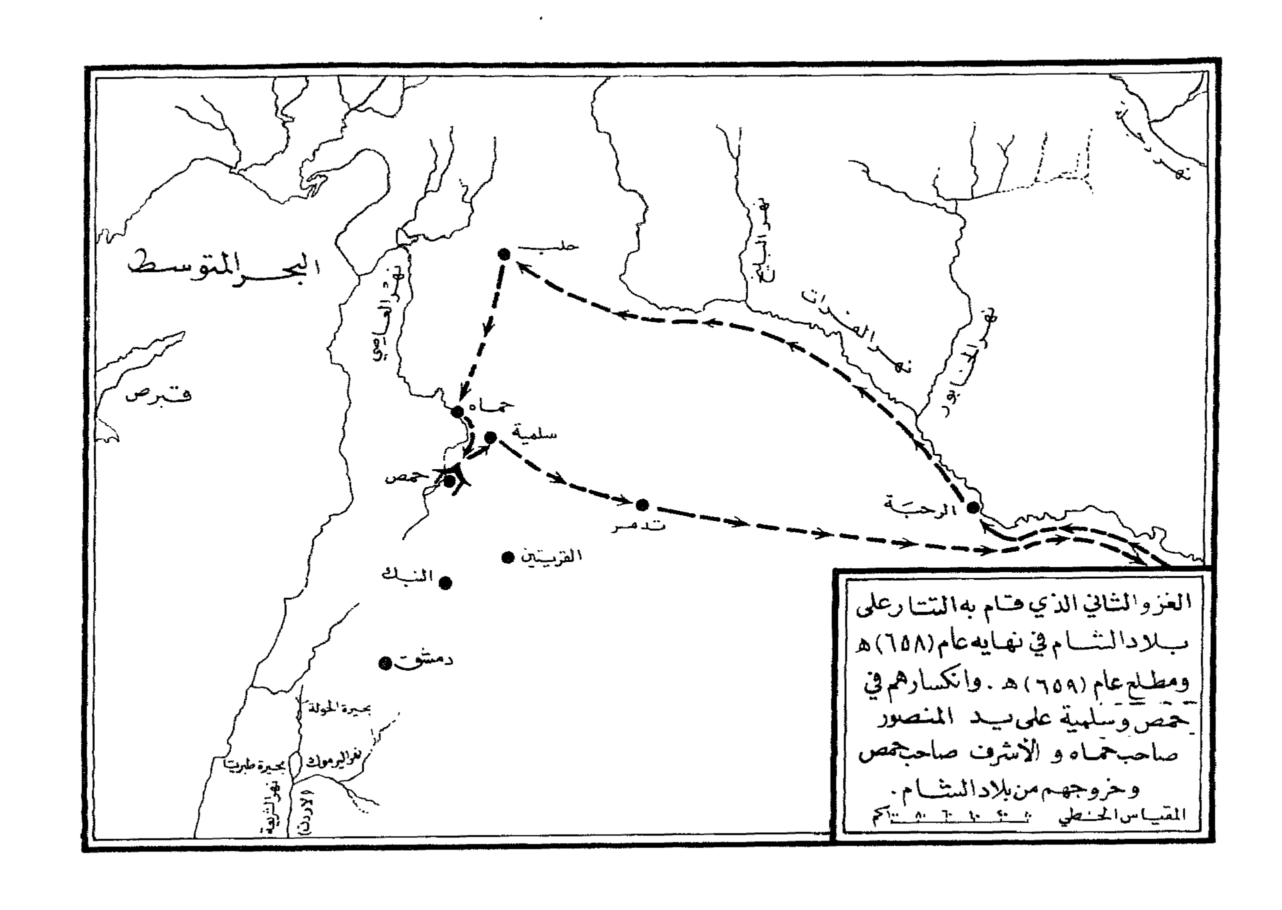
لأنَّ تتار اليوم هم أدهى وأمر، فإن كانت قد اجتمعت كلمتنا فيما مضى من تاريخنا وطردنا الأفرنج ثم التتار، فإن الصهاينة هم أخطر من الأفرنج والتتار معاً، إنهم أخطر بكثير، فلنعتمد على الوعي الصحيح ونطلق الحرية من عقالها، وحرية التعبير عن الرأي يجب أن تكون في طليعة كل الحريات.

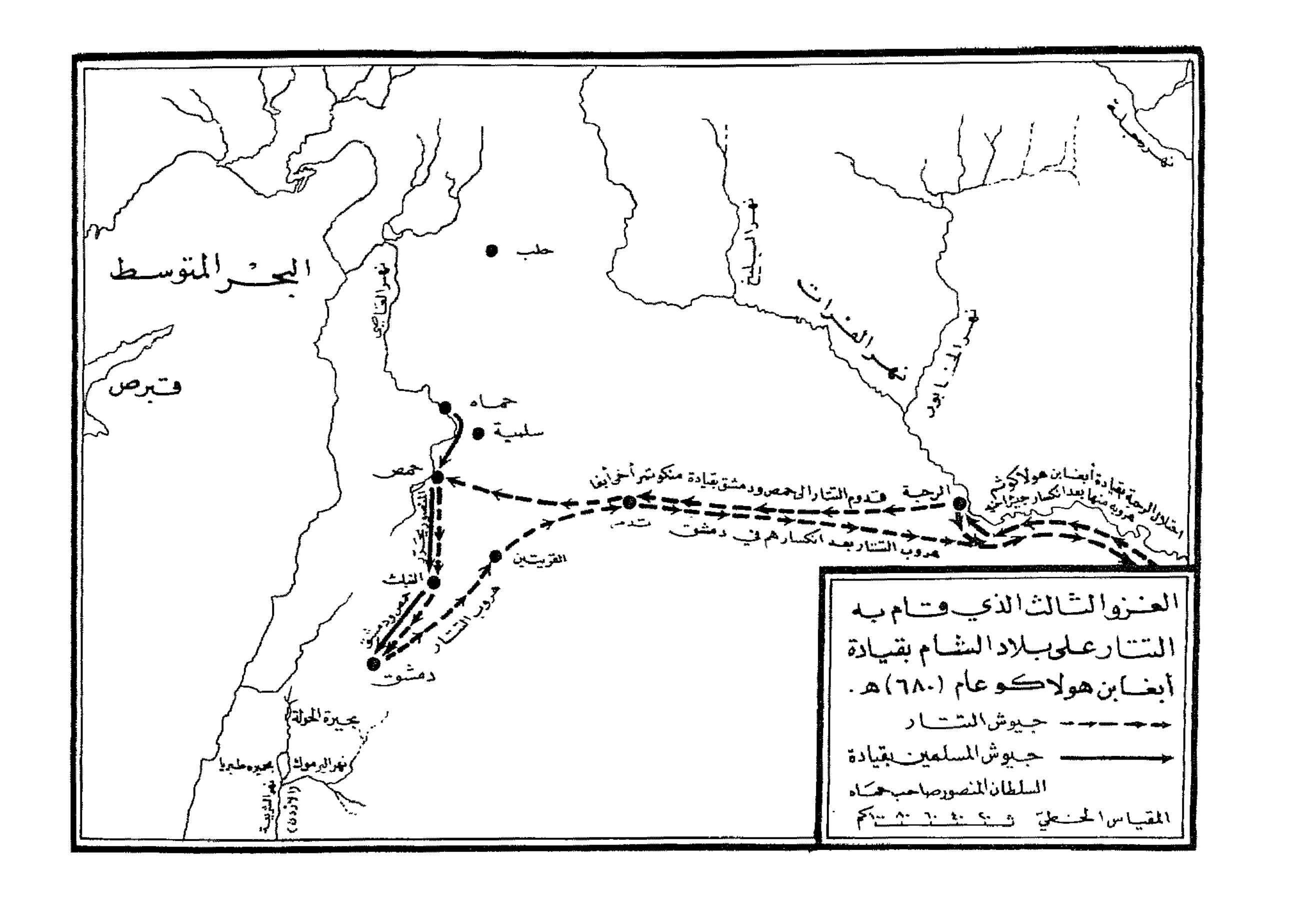
المحتوى

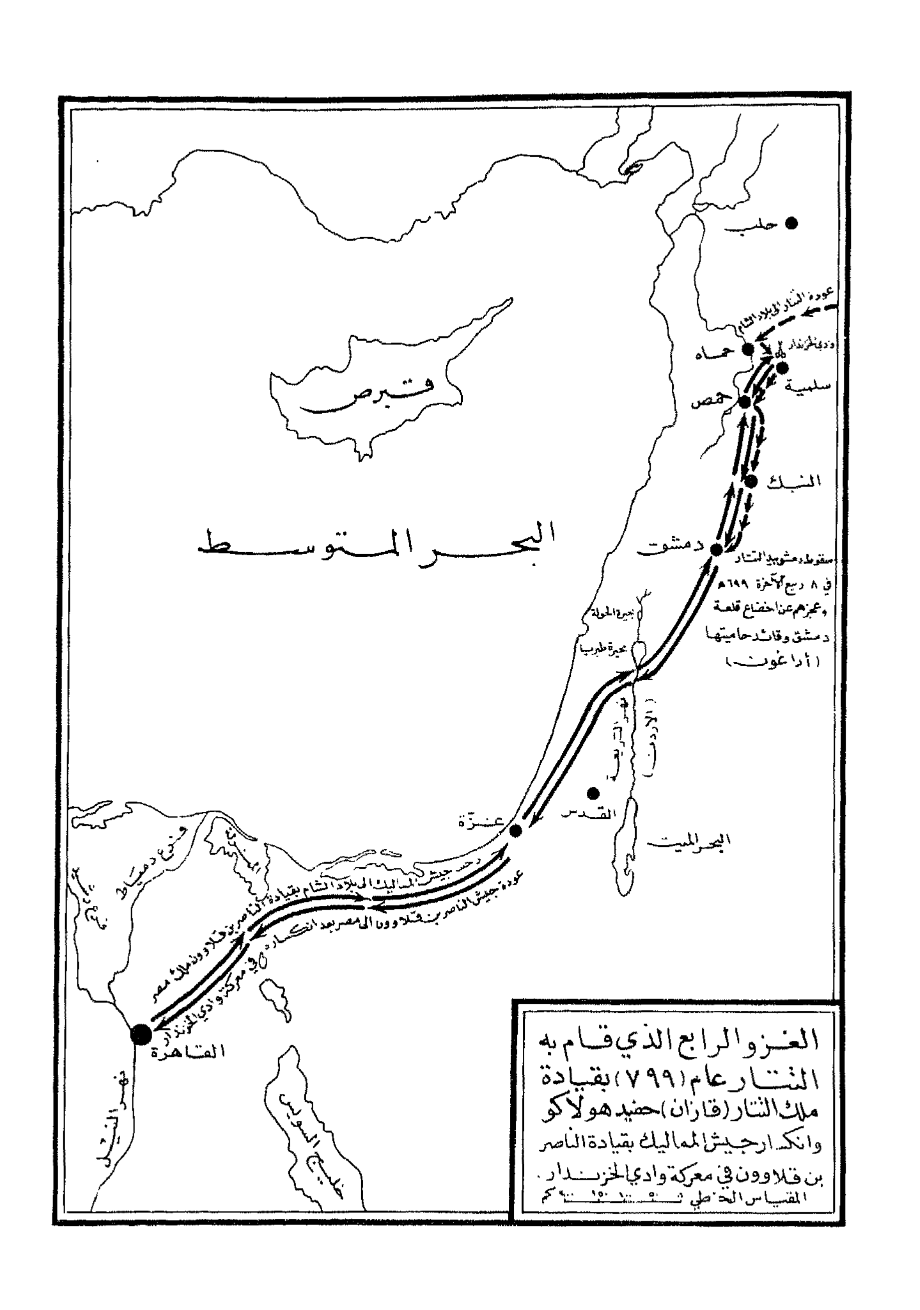


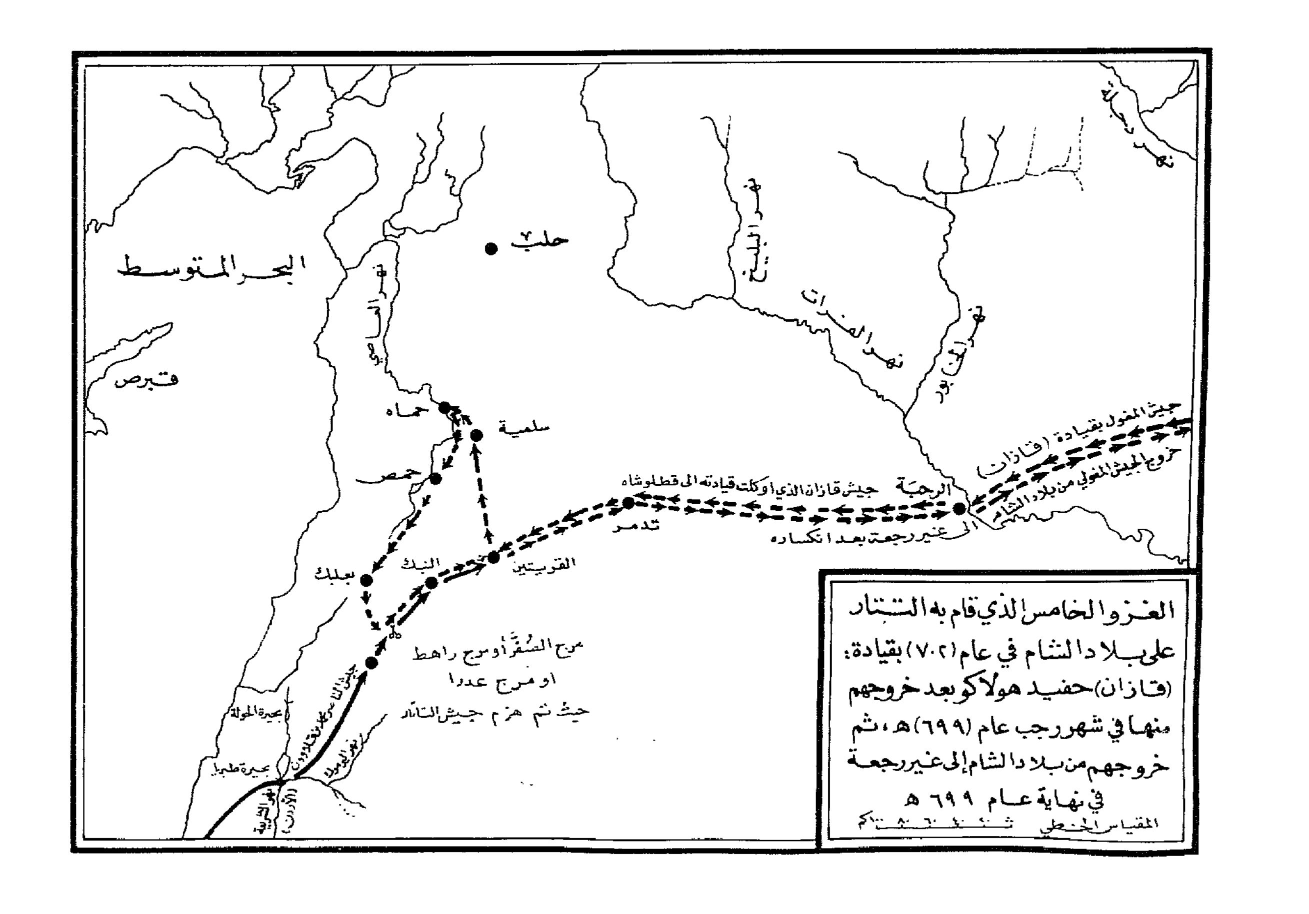
الغزو المغولي
احتلال التتر بغداد (٦٥٦)هـ (١٢٥٨)م
" " حلب ودمشق (٦٥٨) " (١٢٦٠)م
وصول " الى عين جالوت في رمضان (٦٥٨)هـ (١٢٦٠)م
الجيش المغولي بقيادة هولاكو
الجيش الإسلامي بقيادة الملك المظفر قطز ملك مصر
المقياس الخطي
همذان
كرمنشاه
بغداد
سامراء
الموصل
الفرات
حران
حلب
حماه
دمشق
عين جالوت
بحيرة طبرية
القدس
البحر الميت
خليج العقبة


حلب
حماه
حمص
قبرص
البحر المتوسط
دمشق
بحيرة الحولة
بحيرة طبريا
معركة عين جالوت
عين جالوت
القدس
البحر الميت
غزة
جيش الملك المظفر (قطز) ملك مصر
فرع دمياط
القاهرة
نهر النيل
خليج السويس
معركة عين جالوت
الجمعة ١٥ رمضان (٦٥٨) هـ
وتحرير بلاد الشام
على يد الملك المظفر قطز ملك مصر
المقياس الخطي ٠ ٥٠ ١٠٠ ١٥٠ ٢٠٠ كم


البحر المتوسط
قبرص
نهر العاصي
نهر الفرات
نهر البليخ
نهر الخابور
حلب
حماه
سلمية
حمص
تدمر
الرحبة
القريتين
النبك
دمشق
بحيرة الحولة
بحيرة طبريا
نهر اليرموك
نهر الشريعة
(الاردن)
الغزو الثاني الذي قام به التتار على بلاد الشام في نهاية عام (٦٥٨) هـ ومطلع عام (٦٥٩) هـ. وانكسارهم في حمص وسلمية على يد المنصور صاحب حماه و الأشرف صاحب حمص وخروجهم من بلاد الشام.
المقياس الخطي


العزو الثالث الذي قام به
التتار على بلاد الشام بقيادة
أبغا بن هولاكو عام (٦٨٠) هـ.
جيوش التتار
جيوش المسلمين بقيادة
السلطان المنصور صاحب حماه
البحر المتوسط
قبرص
حلب
حماه
سلمية
حمص
دمشق
القريتين
تدمر
الرحبة
نهر الفرات
قدوم التتار إلى حمص ودمشق بقيادة منكوتمر أخو أبغا
هروب التتار بعد انكسارهم في دمشق
هروب التتار
بحيرة الحولة
نهر اليرموك
بحيرة طبريا


حلب
عودة التتار إلى بلاد الشام
وادي الخزندار
حماه
سلمية
حمص
النبك
دمشق
سقوط دمشق بيد التتار
في ٨ ربيع الآخرة ٦٩٩هـ
وعجزهم عن اخضاع قلعة
دمشق وقائد حاميتها
(أرا غون)
قبرص
البحر المتوسط
بحيرة الحولة
بحيرة طبريا
القدس
البحر الميت
غزة
القاهرة
زحف جيش المماليك إلى بلاد الشام بقيادة الناصر بن قلاوون لملاقاة التتار
عودة جيش الناصر بن قلاوون إلى مصر بعد انكساره في معركة وادي الخزندار
فرع دمياط
خليج السويس
نهر النيل
العـزو الرابع الذي قـام به
التتـار عام (٧٩٩) بقيـادة
ملك التتار (قازان) حفيد هولاكو
وانكسار جيش المماليك بقيادة الناصر
بن قلاوون في معركة وادي الخزندار.
المقياس الخطي
كم



الغزو الخامس الذي قام به التتار
على بلاد الشام في عام (٧٠٢) بقيادة:
(قازان) حفيد هولاكو بعد خروجهم
منها في شهر رجب عام (٦٩٩) هـ، ثم
خروجهم من بلاد الشام إلى غير رجعة
في نهاية عام ٦٩٩ هـ
المقياس الخطي
البحر المتوسط
قبرص
حلب
حماه
سلمية
حمص
بعلبك
النبك
القريتين
تدمر
الرحبة
نهر الفرات
نهر العاصي
جيش قازان الذي أوكلت قيادته الى قطلوشاه
الى غير رجعة بعد انكساره
جيش المغول بقيادة (قازان)
خروج الجيش المغولي من بلاد الشام
مرج الصُفَّر أو مرج راهط
او مرج عدرا
حيث تم هزم جيش التتار
بحيرة الحولة
بحيرة طبريا

معارك وبطولات حربية اسلامية وعربية

الحدث الحمراء	وادي لكه	المنصورة	ذي قار
وادي المخازن	بدر الكبرى	عمورية	الذلاقة
فتح قسطنطينية	عين جالوت	ميسلون	الارك
الجبل الاخضر	الي[illegible]ة	نهاوند	احد
بلاط الشهداء	الق[illegible]	اليرموك	حطين



المؤسسة العلمية للوسائل التعليمية
حلب - المسلمية - المنطقة الحرة -